

محور العدد: النزعة القبلية في الوطن العربي
- في صراع الهوية القومية العربية/ بشار شخاترة
- القبيلة وانعكاساتها السياسية/ عبد الناصر بدروشي
- ابن خلدون وتمجيد العصبية القبلية كمحرك للتاريخ/ إبراهيم علوش
- القبيلة/ علي بابل
- قراءة في كتاب العقل العربي في القرآن (3)
- عن الوحدة في منطق القرآن/ محمد العملة
- منبر حر: أخطر من سايكس بيكو ووعده بلفور: وثيقة "كامبل بنرمان"/ صالح بدروشي
- شخصية العدد: زنوبيا، الحسنة التي أرعبت عرش روما/ نسرين الصغير
- الصفحة الثقافية: أوسكار للجماعات الإرهابية المسلحة/ معاوية موسى
- "نقد الردة" كمتطلب إجباري/ طالب جميل
- قصيدة العدد: "المواكب" لجبران خليل جبران/ إعداد إيمن الرمحي

إنّ تحدي الهوية في العصر الحاضر يعتبر من أكبر التحديات التي تواجه الأمم خطراً وتعقيداً، وذلك من حيثية وسائل الاتصال التي تخترق جميع العوائق، إذ لم يعد أي مكان في العالم بمنأى عنها. ومع انتشار العولمة كأيدولوجيا للرأسمالية العالمية في طبعها الأمريكية، بات التحدي الماثل أمام أمم الأرض وشعوبها وجودياً في مواجهة تعميم المنتج الثقافي والقيمي الأمريكي المعولم. فإذا كان الواقع اليوم يفرض مزيداً من الضغط على الهوية القومية للأمم فإنه يتطلب منها مزيداً من الابتكار والمواجهة لتكريس الهوية القومية وهضم تأثيرات العولمة وإعادة إنتاجها قومياً للحفاظ على الوجود القومي، مع العلم أنّ الاتجاهات الغربية في البيت الرأسمالي تعيش مخاضاً وعودة إلى الهوية القومية كما في خروج بريطانيا من الإطار الأوروبي، والمخاض العسير الذي تعرّضت له فرنسا في انتخاباتها الأخيرة وبروز حالات مشابهة أوروبياً، فالرأسمالية تخوض معركة شرسة مع كل الجدر والعوائق التي تشكل حائطاً في وجه توسّعه.

والهوية العربية باعتبارها هوية الأمة العربية بما تتضمنه من محتوى ثقافي واجتماعي وتاريخي، وحالة استيعاب تفاعلي مع جميع الثقافات والأعراق والأمم التي مرّت هنا عبر مسار تاريخي طويل في إطار الجغرافيا العربية، هي البوتقة التي انصهرت فيها كل هذه العناصر التي نسميها الهوية القومية للأمة العربية، والتي تتمايز في سماتها وخصائصها عن غيرها من الهويات القومية، فالهوية العربية تواجه التحدي المعولم كغيرها، لكونها جداراً يعيق تقدّم العولمة، وهنا يقتصر دور الهوية العربية على استحضار الموروث وإضفاء القدسية على مجموعة القيم والتقاليد، والتمترس خلف التاريخ بما يعني أنّ المناعة التي تبديها الهوية العربية عبارة عن حالة ماضوية، وهذا مردّه أنّ الواقع العربي واقع متخلف ولا نصيب له من الإنتاج التقني والفكري العالمي، فهو واقع مستهلك، مما يزيد من العبء على الهوية القومية في مهمتها الدفاعية.

إنّ صراع الهوية العربية مع الغزو المعولم ليس الوحيد الذي تواجهه، فهناك صراع بنيوي ليس جديداً وينطوي على مخاطر جمة، وهو بروز انتماءات ذات طبيعة اجتماعية كالقبلية وانتماءات على أساس ديني كالتائفية، فهذه التحديات ليس بالجديدة، فبعضها قديم قدم الوجود الإنساني العربي، وبعضها أحدث نسبياً كالتائفية التي برزت بعد ظهور الإسلام وما شهدته الحالة السياسية العربية في حينها من حالة انقسام سياسي أدى بالنتيجة إلى التمهذب السياسي الديني.

لمتابعنا انظر موقع لائحة القومي العربي:

www.qawmi.com

وصفحة (لائحة القومي العربي) على فيسبوك
روابط صديقة:

موقع الصوت العربي الحر

www.freearabvoice.org

راسلنا على:

arab.nationalist.moderator@gmail.com

شعار الخلافات العربية الأصيلة !



حقيقة أنّ القبليّة كفكرة وطريقة تفكير تعدّ من أهم الأويئة التي تواجه الهوية العربية. لا وهنا وقبل الدخول في مضمون القبليّة ينبغي أن نوضح أنّ القبيلة كإطار اجتماعي نشأ بفعل عوامل سيّاتي ذكرها، إلا أنّها تختلف عن القبليّة التي تشكّل نهجاً في التفكير وثقافة حياة له قواعد التي تشكّلت بفعل عوامل تاريخية وجغرافية. فالقبيلة كحلقة ضمن مجتمع لا تشكّل بحد ذاتها إشكالية في مواجهة الهوية التي ينتمي لها ذلك المجتمع، وأقصى ما في الأمر هو التنافس بين أولوية الانتماء وأيّهما يتقدم على الآخر، وهذه التنافسية تبقى في إطار ضيق ونتائجها الضارّة محدودة لا تتجاوز التنافس الحزبي في إطار الصراع السياسي، لكن التنافس هنا يجب أن يبقى اجتماعياً، وتطور المشاعر القبليّة بحيث تصبح توجهات، لتتطور مثل هذه التوجهات إلى انتماء متناقض مع الانتماء الاجتماعي أو القومي، يمكن القول حينئذٍ أننا أصبح أمام قبليّة سياسية ثقافية اجتماعية تعبّر عن ذاتها في المواجهة مع الانتماء الأكبر والأهم: الهوية الثقافية للأمة، وهنا مكمّن الخطر.

إشكالية القبليّة في سياق موضوع الهوية أنها استطاعت أن تجد لها مكاناً هاماً في بُنية العقل العربي، وأنها وبسبب أن الواقع التاريخي العربي مرّ بفترات طويلة من غياب التنظيم السياسي "الدولة" تجذّرت كثقافة بفعل الحاجة إلى الأمن والحصول على الكلاً والماء.

تتحدث الدراسات الأثرية عن بُنية سياسية وحضارية في عصور ما قبل الدفيئة الأخيرة في منطقة الجزيرة العربية وساحل الخليج العربي، وأنّ حالات التحوّل المناخي وارتفاع درجات الحرارة وانصهار الجليد أدّى إلى زحف الصحراء وتحوّل السكان في تلك المناطق عن الزراعة إلى البداوة وحياة الترحال، والأهم تصدّع بنيان الدولة وتراجع مفهوم الدولة السياسي لصالح مفهوم القبيلة الاجتماعي الذي يؤدي بعضاً من مهام الدولة بتأمين الحماية لأفراد القبيلة وتوسيع مناطق رعيهم، وتطوّر الفعل القبليّ إلى خلق التحالفات القبليّة التي استندت إلى رابطة الدم والنسب بالدرجة الأولى. إنّ حالة القبيلة باعتبارها البنيان التنظيمي الأهم (في عصور زحف الصحراء) بفعل صعوبة الجغرافيا والمناخ أنتجت قيماً وتقاليد، ويمكن أن نسميها ثقافة، انطوت على جوانب إيجابية ساعدت الناس على مواجهة تحديّ الصحراء، إلا أن طول المدة التي عاشتها الهوية العربية في إطار القبيلة أدى إلى تسلل أنماط من العقليّة القبليّة إلى ملامح هذه الهوية، علماً أن الحالة لدى عرب الجنوب في الجزيرة كانت أكثر تأثراً بهذه السمة منها لدى عرب الشمال في العراق والشام، ويُلْمَح واضحاً التأثير في مصر، وخصوصاً مناطق الصعيد، وهو تأثر الهوية العربية هناك بفكر القبيلة نظراً للتواصل الجغرافي المبكر جداً لعرب الجزيرة مع مصر والسودان عبر البحر الأحمر.

ويلاحظ أيضاً الأثر المبكّر لثقافة الهوية الجامعة في العراق والشام لدى الهجرات العربية المتوالية من اليمن والجزيرة إلى الشمال، ذلك أن التكوين العربي الذي أتى بعيد ضيق الجزيرة واليمن بأهلها وعدم قدرة الكثير منهم حينها على التكيف مع تغير الطبيعة المناخية وعدم تفاهمهم مع حياة البداوة، أدى لانتقالهم إلى الطبيعة الأقرب إلى مزاجهم، واستقرارهم دليل على طبيعتهم المستقرة أساساً، ونضيف أنّ هؤلاء العرب القادمين كانوا رواداً في بناء أعظم الدول والحضارات في بلاد الرافدين والشام، ولم يكن هذا غريباً عليهم كونهم امتداداً إنساني وجغرافي وتاريخي لأسلافهم في الجزيرة واليمن، بمعنى أنّ مفهوم النظام وبناء الدولة كنظام سياسي يتنافى مع مفهوم البداوة الذي يبتعد أيما ابتعاد عن مفهوم الدولة، وذلك لما تنطوي عليه من وسائل قهر وتقييد للحريّة تابأها البداوة التي لا تعترف بحدود أو سلطان لغير سلطان القبيلة. ما سبق لا يفي أن البداوة وحياة الترحال توطنت في الجزيرة وأطرافها بشكل واضح، وتوطنت في عقول أصحابها أيضاً.

قبل الإجابة على هذا التساؤل نبدى أنه بالرغم مما ذكر عن تطور البنية الفكرية لعرب الشمال عنهم في الجنوب، وأنّ مردّ هذا يعود إلى تأثير الجزيرة العربية بتغيرات المناخ بشكل أشدّ وأبكر من تأثير العربية الشمالية، إلا أنّ الغزوات الخارجية التي اجتاحت الشام والعراق في فترات تاريخية منقلبة تركت أثراً مشابهاً للحالة المناخية التي أصابت العربية الجنوبية، والارتدادات القبليّة وجدت لها مكاناً كتعبير عن الدفاع عن النفس، أو أنها أصبحت دولاً تحت السيطرة للمحتل كدولة المناذرة والغساسنة، ولكنها صيغة أكثر تقدماً من الصيغة القبليّة القائمة في قلب الصحراء.

مشكلة القبليّة تعود إلى نشوء انتماء إلى صيغة اجتماعية وهي القبيلة، مثلت - في مراحل تاريخية طويلة - نوعاً من الدولة بالنسبة لأفرادها، وهذه البنية بثقافتها ونمط تفكيرها كانت تعادي فكرة الدولة وترفض الخضوع لها، وهذه الصيغ بقيت تجد لها تطبيقاتها حتى مع قيام الدولة العربية الإسلامية، فكان التعامل مع الدولة يتم على أساس قبلي أو بمنطق إدارة القبيلة ولكنها قبيلة كبيرة، والقبليّة كفكرة شكلت أداة تعطيل في سبيل تطور الهوية القومية وإعادة اللحمة إلى نسيج الأمة، علماً أنّ هذه الحالة كانت تتراجع مع تحوّل الدولة من شكل بسيط (قبيلة كبيرة) إلى شكل أكثر تعقيداً واتساعاً، وهو ما كان يعزز الهوية العربية، وبلغ هذا أوجه في العصر الأموي وخصوصاً العصر المرواني منه، وتطورت هذه الهوية إلى حالة تتجاوز الحالة (العرقية) في صيغتها الأموية إلى هوية ثقافية حضارية مزجت بين الأصل وموروثه وثقافته وبين الإسلام وثقافة الأمم الأخرى التي انضوت تحت راية الدولة، هذا التطور تجلّى في العصر العباسي، مع استقرار الدولة واتساع الرقعة الجغرافية وتزايد السكان وتنوع الأعراق والثقافات ونشوء المدن واستقرارها، بحيث تطورت الهوية إلى معنى أكثر شمولاً واتساعاً ورسوخاً، ففي ظل المشوار الطويل تراجعت فكرة القبيلة، لكنها كانت تظهر على شكل ومضات في التاريخ العربي الإسلامي بصيغ انتفاضات أو تمرد في مواجهة التهميش أو في مواجهة تعسف السلطات وخصوصاً بعد بروز العناصر غير العربية في السلطة وانكشاف بعض ملامح الصراع العربي-الفارسي مثلاً بين الأمين والمأمون.

القبليّة لم ولن تكون هوية بديلة للهوية العربية، فهي لم تكن كذلك في أشدّ فترات القبليّة تألقاً، عندما لم تكن هناك دولة باسم العرب سواء في الشام أو العراق تحت الاحتلال الروماني والفارسي. وعندما كانت الجزيرة بمنأى عن التدخل الخارجي فيها، كانت الهوية العربية حاضرة في عقول العرب، والقبليّة لم تكن أكثر من إطار دفاعي وانتماء أنتجت الظروف، نعم خلقت حولها ثقافة خاصة ونهج حياة، إلا أنّها بقيت تدرك أنّها تنتمي إلى هوية عربيّة وأنّ العرب القبليون كانوا يدركون أنّهم ينتمون إلى أصل مشترك، ولم تكن تلك صدفه بل كانت نتاج تجذّر الهوية العربية عبر فترات زمنية طويلة تكوّنت وتطوّرت فيها في كنف حضارة ودولة شكّلت القبائل ارتداداً عنها بسبب التغيرات المناخية، لكن الهوية صمدت وبقيت واستمرت، فاحتفظت الهوية بوجودها وأدت أدواراً هامة عندما ربطت العرب في الشمال بالجنوب واستطاعت هزيمة احتلالين فارسي وروماني، بتلاحم أبناء الهوية العربية الواحدة.

تكمّن الإشكالية في الارتداد القبلي الذي يصحو مع كل مواجهة مع عدو أو ظروف المناخ، وهذه الإشكالية تشكّل نوعاً من الهروب إلى الأمام، فالارتداد القبلي يعطّل الحل المطلوب في مواجهة ظروف المناخ أو مواجهة العدو المحتل، وهو نوع من صيغ الخلاص الفردي بشكل جماعي، ولذلك تشكّل القبليّة تحدياً للهوية القومية من هذه الجهة، فبدلاً من تطورها تشدّها للخلف، وبدلاً من ابتداء صيغ هجومية للدفاع تصبح حالة التوقع والارتداد القبلي معرقلًا وعبئاً على النهوض، وحالة الارتداد القبلي كانت تعود على شكل دورات زمنية مترافقة مع تراجع الدولة العربية.

إنّ القبليّة كعقليّة ومنهج لا بد من تصفيتها ونهائها، فلا يمكن أن نركن إلى بناء الدولة القومية المنشودة والتي نكتب ونناضل من أجل قيامها ولا تزال عقليّة القطيع القبلي متفشية بيننا، فهذا النوع من التفكير وبما يبني عليه من هياكل اجتماعية (القبائل)، يشكل بذرة الهدم التي تعيش فترة الكمون بسبب غياب الظروف البيولوجية سياسياً واجتماعياً لنمو متواليّة التقهقر والارتداد إلى الصحراء، وهنا ليس مقصوداً الصحراء بمعناها الطبيعي بل المعنى هو ثقافة التصحر التي تستسهل الارتداد إلى الخلف دون المواجهة والدفاع، ولا يكفي فقط تعزيز الهوية العربية في إطار الدولة القومية، فتفكيك بنية القبيلة وإعادة إنتاج البنية الاجتماعية العربية على أساس مديني، وربطها بالدورة الإنتاجية وتكريس قوة القانون وسيادته، تستطيع أن تفكك رواسب القبليّة كنهج، بحيث تتحصّن الهوية القومية وتمتلك المبادرة الدائمة، ليس فقط للدفاع، بل للهجوم أيضاً.

العدد رقم (38) صدر في 1 تموز عام 2017 للميلاد

إنّ الإجراءات السابقة غير كافية فهي تحتاج إلى استقرار مصادر الإنتاج ووسائله وتوطين الحالة المنتجة صناعياً وزراعياً وعلى أسس علمية، لا تُترك للظروف أو الوفرة أو تقلبات المناخ، فلم يعد هذا النمط المتخلف اقتصادياً صالحاً لبناء اقتصاد دولة ترى في نفسها دولة رائدة ومحورية عالمياً، فانتهاج خطة اقتصادية لا تترك المواطن نهياً لعوامل الطبيعة يجب أن يكون محورياً أساسياً في تفكير المخطط الاقتصادي، وهذا النهج يعزز الهوية ويزيدها تجذراً ويحمي بنية الدولة ويقوّي عزائمها وأساسها الداخلي.

فالهوية تتطور في ظلال دولة الأمة التي تتطابق فيها حدود السياسة مع حدود الأمة، هذا هو ربيع الهوية العربية وواجب الدولة الاعتناء بالهوية حماية لبنيان الدولة، فاستراتيجية الدولة العربية المنشودة تعظيم هذه الهوية والانتماء لها وتقدير هذا الانتماء على غيره من الانتماءات، فيجب أن تتضمن الاستراتيجية القومية أنّه يجب أن لا يعود زمن انهيار الدولة وتفكك بنائها وتمزق نسيجها، فإذا كان عنوان تحقيق دولة الوحدة العربية هو الهدف الأسمى لنا، فليكن الثابت المقترن بهذا الهدف هو أنها دولة ووطن نهائي واحد وعلى الدوام لأبناء الأمة العربية لا يُسمح فيه بوجود بذرة للانقسام، ومن هنا التركيز على أولوية الهوية ضمن أسس الدولة التي تشكّل سدوداً منيعة تواجه بشكل يومي ودائم محاولات التسلسل والاختراق.

وعوداً على بدء، نأتي إلى سؤال الطائفية، وهي من ضمن البنى ذات الطابع الديني في المجتمع العربي، فالانتماء الطائفي ليس هوية أيضاً موازية للهوية العربية فهو انتماء ضمن البنية الاجتماعية العربية لكنه يخلق ضغطاً وتحدياً على الهوية العربية، وهو يختلف عن تحدي القبيلة كونه أحدث عهداً في التاريخ العربي، وكونه يستند إلى مرجعية دينية، والحقيقة أنّ الطائفية تتسم بالافتعال وأنعدام الجذور الأيدولوجية كمنهج وطريقة تفكير وأسلوب حياة لارتباطها بصيغة تعبدية ناجمة عن انقسام سياسي بالأساس أخذ الطابع الديني، لكنه أصبح أكثر افتعالاً وتعصباً مؤخراً.

الانتماء الطائفي قسّم الأمة بطريقة عمودية، وعلى خطورة وتحدي هذا الانقسام ودمويته أيضاً، إلا أنه يبقى أقل خطراً من الانقسام الأفقي الذي يتركه الانتماء القبلي؛ فالأول يفرق الأمة مع بقاء ارتباط كلا الفريقين بالهوية والجذور، أمّا الثاني فخطورته تكمن في فصله بين الجذور والفروع على أنه يبقى أقل دموية وأقل استشراساً لكنه أكثر أذى وتهديداً للهوية العربية وأطول نَفَساً. والطائفية من حيث أنها مبنية على أساس ديني، فإنّ وسائل جسّر الهوية تحتاج إلى المعالجة باحترام العرب لانتماء بعضهم الطائفي والديني، لارتباط هذا الانتماء بجانب ديني روحاني تعترف الهوية القومية بدور الدين في تشكيل وعي الإنسان وإسهامه في بنيته الثقافية وتداخلها في تكوين الهوية إثر تطورها في العصر الإسلامي الأموي والعباسي، لكنها تبقى مدخلاً للاختراق وهذا عائدٌ إلى غياب الدولة العربية، مما يستتبع معه تراخي دور الهوية القومية في ظل هذا التكالب العالمي والإقليمي والقُطري والقبلي عليها.

وفي إطار معالجة هذا التحدي، يتوجب على دولة الأمة أن تضع حدوداً للطوائف، اتسع تعدادها البشري أم ضاق، وأن تضع منهجاً في التعليم الديني تحتكر فيه الدولة هذا الدور وتقطع الطريق على أية مرجعية دينية تتجاوز الهوية والانتماء القومي من دون المساس بحرية الناس بالتدين وممارسة الشعائر الدينية بحرية، بحيث تقطع الطريق على استغلال الدين من قبل الأشخاص والجماعات وتوظيفه سياسياً.

إنّ الصراع الدائم الذي تخوضه الهوية العربية هو بمعنى من المعاني صراع النحن العربية التي تشملنا جميعاً، سواء في مواجهة ذاتنا أو في مواجهة الغير، وظيفتها حماية هذه النحن والحفاظ على تميزها عن غيرها، وتضمن استقلاليتها وتفردتها على حاضنتها الجغرافية.

القبيلة وانعكاساتها السياسية

عبد الناصر بدروشي



تعتبر القبيلة أحد أول أشكال الوحدة السياسية التي عرفها البشر، لا العرب فحسب، وإنما الإنسان عموماً، ومع أن القبيلة تعتبر إحدى أقدم التشكيلات الاجتماعية التي انقضت لدى العديد من الأمم والحضارات، لا سيما الأوروبية منها، إلا أنها لا تزال موجودة حتى اليوم في وطننا العربي لا بل ومتجذرة في عدة جهات ومناطق مختلفة، وفي هذه المقالة سنتناول موضوع القبيلة وغيرها من الظواهر الاجتماعية في بعدها العربي فهو ما يعنينا بالدرجة الأولى.

يعرف العاملون في الحقل الاجتماعي القبيلة على أنها جماعة من الناس ينتمون إلى أصل واحد مشترك، تربطهم رابطة العصبية للأهل والعشيرة، ويعيشون حالة من التماسك والتضامن تولد شعوراً شبيهاً إلى حد ما بالشعور القومي أو المواطنة، إلا أن الانتماء القبلي قائم على النسب، بينما الانتماء القومي والمواطنة قائمان على انتماء الفرد لأمة ولوطن.

تاريخياً لعبت القبيلة دور الدولة وحلت محلها، فخلقت «البيات» وإن كانت بسيطة وبدائية تهدف إلى حماية المنتمين إليها وتأمين أراضيهم ومياهم وتسوية النزاعات فيما بين أفرادها ومع القبائل الأخرى، في حالتنا العربية

شكّلت الرسالة المحمدية نقطة تحوّل مفصلية في تاريخنا، ليس فقط كدين وعقيدة تدعو إلى التوحيد في مجتمع وثني، بل كانت سبباً في ولادة نمط مجتمعي وسياسي مختلف عما كان سائداً طيلة قرون لدى أمة العرب، ولعلّ أبرز ما جاءت به الرسالة المحمدية من منظور اجتماعي هو تأسيس رابطة جديدة تربط أبناء «الوطن الواحد» حتى قبل ظهور مفهوم المواطنة كما هو متعارف عليه عندنا اليوم، فقبل نشأة الإسلام كان الولاء للقبيلة والعشيرة، وكان ابن العشيرة وأبناء العمومة والخوالة أقرب للفرد من سواهم ونصرتهم واجبة على من عداهم، وإن كانت قبيلة أخرى تقاسمهم المرعي والكأ والوطن، ثم جاء الإسلام ليعلن عن ميلاد رابطة جديدة تربط أبناء «الأمة» برابطة أسمى من رابطة القبيلة وأصبح لا فرق بين أوسي أو خزرجي أو قرشي إلا بالقوى، وأن لا فضل لحر على عبد، ولا فرق بين فقيرٍ وغني إلا بأفعاله وبمقدار صلاحه وعدله، ويمكن اختزال موقف الإسلام من القبلية في الحديث الوارد في الأثر:

لما كسّع غلامٌ من المهاجرين غلاماً من الأنصار في غزاة بني المصطلق، واستغاث الأول: يا للمهاجرين، ونادى الآخر: يا للأنصار، سمع ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»، فحواله ما جرى، فقال -صلى الله عليه وسلم-: «دَعْوَاهَا فَإِنَّهَا مُنْتَبَهَةٌ».

كان نبذ الرسول للقبيلة وللعصبية وقوله «دعوا فإنها منتنة» يدعو إلى تجاوزها لصالح انتماء أشمل ألا وهو الدولة التي بناها.

وبغض النظر هنا عن المسألة الدينية، وأن النبي محمداً -صلى الله عليه وسلم- بالإضافة إلى كونه نبياً مكلفاً برسالة دينية أممية، كان قائداً اجتماعياً وسياسياً عربياً قام بقلب المنظومة الاجتماعية السائدة رأساً على عقب وأسس نمطاً اجتماعياً متناقضاً مع القبلية كان أرقى وأسمى منها ومتقدماً عليها بأشواط عديدة، ذلك أنه بدأ في إرساء معالم دولة المواطنة، دولة لجميع مواطنيها وعابرة للجهات والمناطق والقبائل وحتى عابرة للديانات (ميثاق أو دستور المدينة).

العدد رقم (38) صدر في 1 تموز عام 2017 للميلاد

سبقت محاولة النبي العربي محاولات، بعضها وصلنا وربما لم يصلنا شيء عن بعضها الآخر، على غرار محاولة كليب، إلا أن النبي العربي قام بما لم يُفهم به غيره وأسس أركان دولة، عندما نقيّمها بمقاييس عصرها ومقارنة بما كان سائداً، نجدها عبقرية حيث عملت على تدوير العصبية القبلية، وإن لم تُجهز عليها بالكامل فإنها أسست له.

اليوم ونحن في القرن الحادي والعشرين، عندما نلقي نظرة بالعين المجردة بلا تحليل ولا تدقيق، يمكننا أن نرى أن القبلية والعشائرية والطائفية لا تزال متجذرة في أغلب أرجاء وطننا العربي، ليس في الجزيرة العربية فحسب، وإنما في عددٍ من محافظات بلاد الشام في الأردن وسورية بالإضافة إلى العراق وسيناء مصر، ولعل أبرز مثالين على تفشي القبلية نجدهما في اليمن وليبيا، وقد عمل الساسة المتعاقبون على حكم هذه المناطق على استئالة القبائل وتطويعها خدمة لهم، بدل القضاء عليها كظاهرة تهدد اللحمة الوطنية وتتناقض مع مفهوم المواطنة ومفهوم الدولة أصلاً، حيث أنه لا يستقيم أن تقبل دولة بقيام أو استمرار سلطة غيرها لها نفوذ على مجموعة من مواطنيها خارج إرادتها وسلطانها.

لا بل نجد أن بعض الأقطار العربية، حتى تلك التي حكمها قوميون، يدعون إلى قيام دولة الوحدة العابرة لحدود الطوائف والقبائل والمناطق، لم تفلح في الإجهاد على ظاهرة القبلية ولم تتمكن من الارتقاء بوعي المجتمع من القبيلة إلى الدولة. وفي هذا الصدد من الضروري معرفة أنه حتى الأقطار التي حملت مشروعا قومياً لم تقم بقمع العصبية القبلية، بل في كثير من الأحيان حاولت الاستعانة بها لخدمة الدولة وتدعيم أركان الحكم، ففي ليبيا مثلاً يتم تقسيم عوائد الثروة النفطية على القبائل، التي تقوم بدورها بتقسيمها وفق ما تراه على أبنائها. من ناحية أخرى، فرضت حالة الضعف الهيكلي والبنوي "للدول" تصاعداً للدور السياسي والاجتماعي للقبائل كدوائر مركزية للانتماء، مما قوى الانتماء العشائري والقبلي على حساب رابطة المواطنة، ويتجلى ذلك على مستوى الانتخابات السياسية البلدية والتشريعية التي تخضع لحسابات قبلية تحدد مآلها وهي أبعد ما يكون عن الاحتكام للبرنامج والكفاءة السياسية، لا بل حتى على نطاق ضيق ودخل الحزب نفسه نجد القبيلة تدخل كعنصر محدد لفرز المكتب السياسي وانتخابات الأمانة العامة للحزب حتى داخل ما يعرف بعائلة الأحزاب القومية والتي يفترض بها أن تكون أول من يحارب العصبية القبلية ويسعى للقضاء عليها لحساب رابطة المواطنة المحلية للدولة ثم القومية العربية، ولكن التفكير الانتهازي والجشع السياسي جعل هذه الأحزاب "القومية" تنحو منحى الأنظمة القطرية التي عملت على تسخير العصبية القبلية والعشائرية لصالح تموقعها في سياق العمليات السياسية الجارية.

لسنا بصدد كيل الاتهامات جزافاً للحكام القوميين الذين نعتزّ بإرثهم وننتبئ إنجازاتهم ونفتخر بكوننا امتداداً لنفس المدرسة التي ينتمون إليها، وإنما بصدد إثارة الموضوع على طاولة البحث لمعرفة سبب إخفاقها أو تأخرها عن إنجاز هذا الملف، ولربما لو قدر لهذه التجارب أن تستمر لفيض لها أن تقوم بما يجب القيام به على هذا الصعيد، والمهم هو التأسيس لخطة عمل تهدف إلى إنهاء عوامل التفكير والتقسيم في صفوفنا كأمة. وفتتس هنا من مقال "التجزئة أخطر عدوان على الأمة العربية" لصالح البدروشي العدد 29 من طلقة تنوير: "كذلك نجد أن العصبية العشائرية والقبلية والطائفية إرث قديم وثقيل في مجتمعنا العربي المفتوح على صحارى شاسعة.

فوطننا العربي يحتوي على عدة قبائل كبيرة الحجم ولما تمت تجزئته إلى دويلات صغيرة وضعيفة قياساً بحجم وقوة الدول المهيمنة في العالم، كان لهذه التجزئة انعكاسات نذكر منها نقطتين هامتين، الأولى أن القبائل والعشائر وجدت حجمها وشأنها يكبر أمام شأن الدولة، وعوضاً عن تقليص وتدوير هذه العصبية لصالح دولة المواطنة نراها تنمو وتتجدد كأداة تتكيف مع كل تبعات التجزئة من تبعية وتخلف وتساهم في ترويض المواطنين في ذلك السياق بالتفاهات والمسكنات والتوافقات السطحية.

والثانية أن أنظمة التجزئة الرجعية عملت على توظيف تلك العصبية المحلية في ضرب الانتماء القومي العربي الجامع وكان هذا السلوك القطري معادياً بشراً للمشروع القومي العربي، ويحول دون بناء السلوك المواطني الذي ننشده لبناء الدولة العربية الموحدة، وحتى الأنظمة الرجعية التي حاربت العصبية القبلية، مثلما حصل في تونس مثلاً، فإنها فعلت ذلك بهدف استبدالها بقبلية أو عصبية مناطية أشدّ مقتاً من الأولى (عصبية الساحل مثلاً).

ورغم وجود هذه القبائل عندما تم إسقاط وتفكيك بنيان الدولة، غرقت كل من ليبيا والعراق والصومال واليمن في أتون الفوضى الكارثية في حين أن القبائل والعشائر ما زالت قائمة متباهية بمشائخها ووجهاتها وبعزوماتهم الفاخرة! وهذا أحد انعكاسات التجزئة الذي يكرس التخلف في وطننا العربي. " انتهى الاقتباس

العدد رقم (38) صدر في 1 تموز عام 2017 للميلاد

لطالما هدّدت القبلية والطائفية عروش الأنظمة الوطنية والقومية وقصّت مضاجعها وشكّلت ثغرة لأعداء الأمة لاستهدافنا من خلالها لإثارة القلاقل والنزاعات الداخلية تمهيداً لتأسيس مرحلة جديدة من تقسيم ما تمّ تقسيمه من قبل، فبعد مرور ما يزيد عن قرن من الزمن على إطلاق مشروع سايكس-بيكو وتقسيم الوطن العربي إلى دويلات وتحويل الوطن العربي إلى منطقة لتقاسم النفوذ بين القوى الإمبريالية عبر إنشاء حدود وحواجز مفتعلة وغير مبررة، عملت الإمبريالية على تجديد آلياتها في سبيل ضمان استمرار هيمنتها على مقدراتنا وأرضنا وشعبنا.

وتفتّقت أذهان عدد من الباحثين الغربيين ومراكز الأبحاث الاستعمارية عن فكرة تقضي بإعادة هيكلة المنطقة برمتها على أسس جديدة بما يضمن تأييد حالة التجزئة والتخلف، ومعلوم أنّ قوى الهيمنة الغربية كان لها الدور الأبرز في الإبقاء على عوامل تفكيك الأمة وتغديتها ومن بينها القبلية والطائفية واللعب على وترها للإبقاء على حالة التجزئة التي تنخر عصب أمتنا، خصوصاً عبر تأسيسها لحركات الإسلام السياسي بتفريعاتها. وفي الجزائر مثلاً، نجد أنّ العصبية القبلية والحركة الأمازيغية مرتبطة بشكل مباشر بالصهيونية ومدعومة منها، لا بل ومخلوقة من طرف فرنسا الاستعمارية وتربطها علاقات صداقة وزيارات متبادلة بمنظمات صهيونية في فلسطين المحتلة، كما ننظر بعين الريبة إلى بعض الظواهر التي يتمّ إنشاؤها وإعلاء صوتها على غرار ما يسمى "المجلس المصري للقبائل المصرية والعربية"، و"الاتحاد العربي للقبائل في الدول العربية"، والذي نجده ينشط هنا وهناك ويقوم الندوات ومجالس الإفطار، وله مواقع وصفحات على الفضاء الافتراضي.

تمرّ أمتنا اليوم بمرحلة مفصلية دقيقة، عنوانها الأبرز هو ما يسمى بـ"الربيع العربي"، والذي يعتبر أعتى موجة إمبريالية شهدتها أمتنا طيلة تاريخها الطويل، ليكمل ما عجزت عن تحقيقه آلة الحرب الصهيو-أمريكية والأوروبية من قبل، حيث أنّ جوهر هذا المشروع هو إدخالنا في عملية تدمير ذاتي وتناحر عربي-عربي بأبواب عربية وبتمويل عربي وعلى أرض عربية تمهيداً لاستبدال الحدود الجغرافية الواهية والتي لا يوجد لها مبرر في ذهن أي مواطن عربي إلى حدود طائفية وقبلية تمتلك مبرر وجودها في أذهان ووعي ولاوعي أبناء الأمة الواحدة والذين تمّ تدجينهم واستبدال وعيهم وانتمائهم القومي بانتماءات فرعية عشائرية وقبلية ومناطقية وطائفية.

إنّ للقبيلة وعيها الخاص وكيانها و"شخصيتها" الخاصة، إن جاز التعبير، بحكم ترابطها وتلاحمها في وحدة واحدة تجعلها تتحرك وفق وعيها بذاتها بحثاً عن مصالحها كقبيلة أو كعشيرة أو حتى كطائفة أولاً، متميزة عن غيرها من القبائل أو الطوائف، وانتماؤها للوطن وللأمة عادة ما يكون ثانوياً باعتبارها خارجة عن سلطان الدولة، حتى في بعض الحالات التي نرى القبيلة فيها خاضعة لسلطة الدولة والقانون فإن ذلك يكون بقرار منها وبرضاها ولا ينطبق على جميع مناحي الحياة وتفصيلها بل تبقى لها من الخصوصية ما يغذي استمراريتها ويحفظها من التفكك والزوال، ولعل أهمها هو أنّ للقبيلة (كهرم) رأساً، ولهذا الرأس (سواء كان فرداً أم مجموعة وجهاء أو أعيان) سلطة معنوية بل ومادية مباشرة على أفراد الطائفة أو القبيلة كما أنّ قوانين القبيلة وأعرافها الخاصة تعزز وعيها بذاتها كوحدة اجتماعية مترابطة متميزة عما سواها.

إنّ ما يسري على القبيلة يسري على الجهة والطائفة، وإن بدرجات متفاوتة، مع أخذ الخصوصيات والفروقات الدقيقة بعين الاعتبار بين الأمثلة، ودعونا لا نستبشر كثيراً باصطفاف عدد من القبائل من منطلق وعيها بذاتها "كقبائل"، وعدد من الطوائف من منطلق وعيها بذاتها "كطوائف"، إلى جانب الدول الوطنية في مواجهة العدوان الصهيوني-أمريكي والتكفير، فهي تظلّ بمثابة قبيلة موقوتة يمكن أن تنفجر في وجهها في أية لحظة، كما أنّ التمرس خلف طائفة معينة يشجع بقية الطوائف والعشائر ويحفزها إلى أن تحذو حذوها. نحن ندرك خصوصية المرحلة ولا نطلب من أي نظام قومي مقاوم أن يشن حرباً هنا والآن على القبلية والطائفية في هذا ظروف الهجمة الشعواء، وإنما ندعو أصحاب الرأي والسلطة إلى الانتباه إلى هذه الظاهرة والحذر منها والعمل على وضع خطة منهجية تهدف إلى تحليل الانتماءات الفرعية وإنهائها لصالح الانتماء القومي.

نلفت انتباه القارئ الكريم إلى نقطة مهمة تستوجب بحثاً معمقاً وهي كشف لغز استمرار الظاهرة القبلية عندنا كعرب دوناً عن بقية شعوب العالم، وما هي العوامل التي صهرت القبائل وحولتها إلى شعوب ومواطنين في عدة أمم، بينما لا يزال واقعنا العربي يتسم بالطائفية والقبلية، وما هو دور الاستعمار في تغليب وتنمية العصبية القبلية والعشائرية والطائفية في المجتمعات التي قام باحتلالها، وهي النقطة التي تناولها مادة "ابن خلدون وتمجيد العصبية القبلية كمحرك للتاريخ" في هذا العدد من طلقة تنوير.

ابن خلدون وتمجيد العصبية القبلية كمحرك للتاريخ

إبراهيم علوش



يعتبر الإنتاج المعرفي لعبد الرحمن بن خلدون (-1332م) من أهم مقدمات الفكر الاجتماعي الحديث، ويعتبر هذا العالم الفذ المولود في تونس، بعد أن أتت عائلته إليها من الأندلس، سليل بيئة سياسية وعلمية خصبة، وكان اسم عائلته "الحضرمي"، نسبة إلى حضرموت في اليمن، وقد ذكر ابن خلدون في سيرته أنها عائلة تنتسب للصحابي وائل بن حجر. وقد اشتهر عبد الرحمن بن خلدون في زمانه كسياسي في دول وممالك المغرب العربي والأندلس، على مدى عشرين عاماً على الأقل، قبل أن يعتزلها ليتكسّر للعلم والفكر والكتابة، ليقتضي عقدين ونيف في نهاية حياته في القاهرة حيث تولى القضاء المالكي في فترات مختلفة.

كعالم، ذاعت شهرة ابن خلدون في الأفق بعد أن اهتم به علماء الغرب ومفكروه في القرن التاسع عشر، وليس قبل ذلك، باستثناء اهتمام العثمانيين العابر في القرن السابع عشر بمقدمته الشهيرة باسم "مقدمة ابن خلدون" التي تشكل حجر الزاوية في العلم الاجتماعي الذي حاول ابن خلدون تأسيسه، لأنه شرّع فيها الحكم والمُلك وتولي الخلافة بناءً على قوة العصبية القبلية وتغلبها عما سواها، مما جرى على عكس المدرسة التقليدية في الفقه الإسلامي التي رأت بأن الخلافة يجب أن تكون في قريش، على ما يذهب إليه علي الوردي في كتابه "منطق ابن خلدون". وعليه ترجمت مقدمته إلى اللغة التركية، لكن ابن خلدون ظل حتى النصف الأول من القرن العشرين شخصية مغيبة

فعلياً في الفكر العربي الإسلامي، ربما لأن ذلك الفكر نفسه وكل التطور الاقتصادي-الاجتماعي العربي رزحاً تحت نير غيبوبة وتختر عميقين استطلااً قرونياً في ظلّ العثمانيين، وربما لأنّ منهج ابن خلدون الاستقرائي الموضوعي في فهم تطور المجتمع والتاريخ كان لا بد له أن ينتظر مجيء الرأسمالية والصناعة والعلوم لكي يُقرأ بعين جديدة تكتشف ما فيه من دررٍ ما كان من الممكن التقاطها إلا بعدسات فكر المجتمعات الحديثة، وربما لأنّ النخب العربية المتشوّقة للنهضة منذ محمد علي باشا الكبير في مصر شعرت أن عليها اللحاق بالغرب وعلومه وإنجازاته وتعويض الزمن المفوت، فلم تعطِ المراجعة العلمية للتراث أولوية كبرى، فسقط ابن خلدون سهواً؟

ما نعلمه هو أن فيض الكتب والدراسات العربية عن ابن خلدون ومقدمته بدأ يتدفق في القرن العشرين، وأن أسماء كبرى لمعت في حقل دراسات المقدمة، من ساطع الحصري، أستاذ القوميين العرب، إلى طه حسين إلى محمد عابد الجابري وغيرهم كثر. وإذا كانت تلك الدراسات قد تركّزت بجلّها على المقدمة، مع أنّ لابن خلدون كتباً عديدة، أهمها مجلداته في التاريخ العام (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر)، وغيرها مؤلفات بعضها ضاع وبعضها بقي، مثل الكثير من تراثنا العربي، فلأن المقدمة تحتوي مشروع ابن خلدون الفكري لتأسيس فلسفة علم اجتماعي جديد في المنهج والموضوع، هو علم دراسة المجتمعات والتاريخ واستنباط قوانين حركتهما انطلاقاً من واقع المجتمع في المغرب والمشرق العربيين، في قراءة سعى ابن خلدون أقصى جهده أن تكون موضوعية وعلمية وشاملة، وكان في ذلك ريادياً ومجدداً وصاحب سبق كبير، من دون أن يعني ذلك أنه وُفق وأصاب في كل استنتاجاته، ككل ريادي ومجددٍ وصاحب سبقٍ علمي أو فكري، وهو في هذا لا يختلف عن الكثير من الفلاسفة والعلماء والمفكرين الذين تجاوز

العدد رقم (38) صدر في 1 تموز عام 2017 للميلاد

تطور العلوم التي أسهموا بتأسيس مناهجها القليل أو الكثير من استنتاجاتهم ونظرياتهم، من طبيعيات أرسطو إلى ميكانيكيات نيوتن، مما لا يقلل منهم بتاتاً أو من الأهمية المفصلية لمناهجهم ورؤاهم في نقل الفكر البشري خطواتٍ دراماتيكية للأمام في لحظات محددة من التاريخ.

كذلك لا يقلل من ابن خلدون ومساهمته أن نقول أن منهجه في قراءة التاريخ بشكلٍ علمي ليس قطعةً مثيرةً للإعجاب في متحفٍ للفكر العربي الإسلامي فحسب، بل أنه ذو أهميةٍ راهنة في قراءة المجتمع العربي المعاصر وتطوره، لكن ذلك لا يعني بالضرورة أن ما توصل إليه حول العصبية القبلية كمحركٍ أولٍ للتاريخ هو استنتاج دقيق، على ما نرى، إذ أن مثل تلك العصبية كثيراً ما كانت معولاً لهدم الحضارة وال عمران، وعاملاً من عوامل عدم الاستقرار، ومدخلاً لتفكيك الدول المركزية، بمقدار ما كانت العكس، كما يحاول أن يثبت ابن خلدون، وهو ما سنعود إليه لاحقاً.

هذه المعالجة تذهب إذاً في موضوع النزعة القبلية باتجاه معاكس لما سار عليه ابن خلدون، لا من حيث أهميتها في تاريخنا بالضرورة، بل في تمجيده الضمني والصريح لها، لكنها معالجة لا تقفز باستخفافٍ عما أضافه ابن خلدون لمنهجية قراءة التاريخ، فقد سعى لدراسة الظاهرة الاجتماعية كما يدرس العالم الظواهر الطبيعية، ولم يضع ابن خلدون نموذجاً من "عالم المثل" لما يجب أن تكون عليه "المدينة الفاضلة"، بل سعى لأن يفهم الواقع كما هو وعمل على استقرار قوانينه بناءً على ظروف الحياة المادية العربية، ولم يسعَ لاستنباط تلك القوانين من مقدماتٍ وقوالٍ عقليةٍ محددةٍ مسبقاً على الطريقة الأرسطية التي تبنّاها فلاسفة ومناطق ذلك الزمان، وحاول أن يستنتج قوانين التاريخ من التفاعل بين الاقتصاد والمجتمع والسياسة، لا من إرادة قوى ميتافيزيقية أو خارقة، ومع ذلك فإنه لم يعتبر قط أن البشر يصنعون تاريخهم كيفما اتفق أو كما يشاؤون بـ"الإرادة الحرة"، بل ربط السياسة والمجتمع بظروف الإنتاج المادية (إن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلهم بالمعاش)، فسبق ماركس وإنجلز بوضع أسس القراءة المادية للتاريخ بخمسة قرون، وإن كان ابن خلدون قد رأى انقسامات مجتمعية عامودية (بدو وحضر) حيث رأوا انقسامات طبقية أفقية فحسب (صراع السيد وال عبد، والقن والإقطاعي، والبروليتاري والبرجوازي).

لا بدّ من الإشارة، حول المقارنة مع ماركس وإنجلز تحديداً، أن قراءة ابن خلدون ما برحت تقدم إضافةً نوعيةً في قراءة التاريخ العربي عما تقدمه الرؤيا الماركسية المُسقطة ميكانيكياً على تاريخنا، فاختزال الصراعات الاجتماعية برمّتها على شكل صراعٍ طبقي فحسب يبتسر معالم أساسية من تناقضات رئيسية تمتد كخيوط لا تقطع عبر تاريخنا وعلى رأسها الصراع بين البدو والحضر، الذي فرضته الطبيعة الصحراوية لأغلبية مساحة وطننا العربي، والتي ظلّت تنتج البداوة عضويّاً كظاهرة اجتماعية وكأحد مكونات المنظومة القيمية لكل المجتمع العربي في البادية والريف والمدينة بكل ما تحتويه من إيجابيات وسلبيات، أما التناقض التاريخي الرئيسي الآخر الذي ظل يتخلل تاريخنا كخيوط لا ينقطع فهو الصراع بين أبناء هذه الأمة وقوى الهيمنة الخارجية التي طمعت بأرضنا بسبب موقعها في العالم القديم بين قارات آسيا وأوروبا وإفريقيا، مما جعلنا معبراً لطرق التجارة والهجرة والحملات العسكرية العالمية.

وإذا كان يمكن في بعض الحالات تأويل هذين التناقضين طبقياً، فإن ذلك يصبح نقاشاً أكاديمياً أو فلسفياً لا يغير من حقيقة اتخاذ هذين التناقضين الرئيسيين (البدو والحضر، وصراعنا الأزلي مع قوى الهيمنة الخارجية) حياة قائمة بذاتها ذات تجليات خاصة بها لكل الأغراض السياسية العملية. ولا يلغي ذلك من وجود تناقضٍ طبقي بين المستغل والمستغل انعكاس بالضرورة عبر مصافي وجودنا الموضوعية: الضريبة والمكوس التي فرضتها إمارات الاستيلاء، الغزو والغنائم، الإقطاع العسكري الأجنبي الذي فرض على أمّتنا تحت قناع ديني... ومن ثم الشكل التقليدي للاستغلال الطبقي الذي فجّر "ثورة الزنج" مثلاً في سواد العراق في القرن التاسع الميلادي والتي لم تخرج بدورها عن ظرف سيطرة الأتراك على الخلافة في بغداد، وعن تشغيل العبيد على نطاق واسع في أعمال الدولة العباسية لتجفيف المستنقعات في جنوب العراق، وعن النقمة على العباسيين لأسباب سياسية كأحد عوامل تقجير تلك الثورة خصوصاً في سنواتها السبع الأولى.

بالعودة لابن خلدون، لا نجادل إذاً في أولوية الصراع بين البدو والحضر كتناقض رئيسي، من بين عدة تناقضات رئيسية، في التاريخ العربي، إنما نجادل في اعتبار ذلك الصراع محركاً أول أو تقديماً للتاريخ العربي أو العالمي، وفي اعتبار الميزة البدوية المتمثلة بالعصبية القبلية القوة الدافعة لتأسيس الدول التي تتحلل الدول بانحلالها، ونجادل في نسبة كل الصفات الإيجابية مثل صحة الأجسام ونباهة العقول واستقامة الخلق والتواضع والنقش والشجاعة والإقدام للبداوة المتوحشة، التي قصّد فيها منتهى البعد عن الاستقرار والحضارة المدنية، لا التوحّش بمعناه المعاصر، وفي اعتبار طرف النقيض في كل ذلك هو سكان المدن الذين يتسمون، بحسب هذه النظرية، باعتلال الأجسام وبلادة العقول وانحراف الخلق والتكبر والانقياد للملذات والجبن وقلة المروءة.

العدد رقم (38) صدر في 1 تموز عام 2017 للميلاد

لا يفوتنا أن ما كتبه ابن خلدون بمعايير ذلك الزمان كان يمثل رداً على الشعوبية، أو نزعة معاداة العرب باسم الإسلام، بمقدار ما كان الشعوبيون يربطون العروبة بالبداءة، لا سيما البداءة المتوحشة، القائمة على رعي الإبل حصراً، والتنقل بحثاً عن الماء والكلأ والمرعى، والتنازع الدموي على تلك الموارد الشحيحة، مما ينمي العصبية القبلية ويغذيها ويحولها إلى قوة سياسية تطغى تدريجياً عما سواها، على القبائل التي تمزج بين رعي الإبل والأغنام وما شابه أولاً، ثم على القبائل شبه المستقرة التي تعتمد على الزراعة، ثم على الحواضر المستقرة، على القرى ثم على المدن التي تتعرض للغزو البدوي، فإما أن لا يقدر عليها إذا كانت تلك المدن لا تزال قوية فيصبح حارساً عندها في مواجهة قبائل أخرى مقابل أجر، وإما أن يقدر عليها بعد أن تهزم فيجتاحها ليؤسس دولة جديدة على أنقاضها.

فإذا اجتاح البدو تلك الحواضر وأسسوا فيها دولة ناشئة، فإن تلك الدولة تمرّ بدورها بعدة أطوار يدخل فيها المتغلبون تدريجياً بمراحل التحضر حتى ينزفوا ويفسدوا ويفسقوا وتزول عصبيتهم تدريجياً فينضجوا لاستقبال غزوة بدوية جديدة تمهد لنشوء دولة جديدة، وتلك حال الدول في نشوئها وارتقائها وأولها بحسب ابن خلدون، إذ تشكل العصبية القبلية وما تحمله من تماسكٍ سياسي وصفاتٍ حميدة نسج تجدها وتعاقب دوراتها، وبالتوازي مع هذه الرؤية للتاريخ نسج ابن خلدون نظريات في علم السياسة حول الرئاسة والعصبية والمُلك، ونظريات في علم الاجتماع السياسي حول تشبه المغلوب بالغالب في الزي والسلاح والسلوك والمظهر، وحول تشبه الغالب بالمغلوب في العمران والرفاهية والفنون والترف، في توليفة نظرية تشكل طفرةً نوعية عالمية في الفكر الاجتماعي بمقاييس القرن الرابع عشر حين وضعت.

ولا ينكر ابن خلدون على البدو المتوحشين حبّ الغزو والسلب والتدمير وكرهيتهم للعمل وابتعادهم عن العمران والعلوم والفنون، غير أنه لا يعتبر ذلك على ما يبدو مشكلة كبيرة بالنظر لدورهم التاريخي في إزالة الفساد الحضري وتجديد الدول وصناعة التاريخ، ما دامت العصبية القبلية سرّاً التماسك التنظيمي الذي يسمح بتشكيل الجيوش الغازية أو الدول القوية! والمشكلة هنا ليست ذلك الحكم القيمي بحد ذاته، إنما في تجاهل تأثير تلك العصبية على العمران ممن اعتبر أنه وضع «علم العمران» (عزّمتنا أن نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب الأول الذي هو طبيعة العمران وما يعرض فيه...). فبمقدار ما تزداد نسبة البداءة للحضارة، بمقدار ما يعيق الغزو البدوي التراكم الحضاري والعمراني وبمقدار ما تتأخر الأمم؛ وبمقدار ما تضعف الدول المركزية بتأثير الغزوات البدوية، بمقدار ما تضعف أمام الغزو الخارجي وتصبح عرضةً للتفكيك؛ وبمقدار ما تنتج الصحراء العصبية القبلية، بمقدار ما يمنع ذلك اندماج القبائل في شعوب ويضعف نسيج المجتمعات ويتعرق تطور القوميات.

ليس من قبيل الصدفة بتاتاً أن الإسلام اعتبر العصبية القبلية جاهلية منبوذة، وأنه جعل الحد على قطع الطرق من أشد وأوضح الحدود، لأنّ العصبية تفككتنا اجتماعياً وسياسياً، ولأنّ قطع الطرق يمنع نشوء الدولة المركزية القوية، ويعيق التراكم العمراني والحضاري، ويقطع خطوط التجارة، ويجعلها أكثر كلفة، ويدمر الزراعة، ويؤخر الصناعة، ويهز استقرار المجتمعات ويبدد ثرواتها ويمنع تطورها. ولهذا فإن كل تطور جوهري في تاريخنا العربي كان يتمّ في كنف الدول المركزية القوية القادرة على فرض الاستقرار بالقوة، من البابليين والآشوريين والفراعنة إلى محمد علي باشا، وكل دولة عربية مركزية قوية كانت تقوم على الاستقرار المدني والزراعي القادر على لجم التأثير المدمر للتغول على الحواضر، وعلى احتواء من يقومون به بطريقة أو بأخرى. والطريف في ابن خلدون أنه قابل الهمجي تيمورلنك على أسوار دمشق وشرح له نظريته في العصبية القبلية والغزو القبلي كأساس للدول، فأعجبت تيمورلنك كثيراً، واستضاف ابن خلدون ٣٥ يوماً، من دون أن يلاحظ الأخير تأثير ما قام به تيمورلنك من حرق ونهب وسلب وقتل جماعي في دمشق ومدن بلاد الشام والعراق على «العمران»! ويبدو أن تيمورلنك كان يخطط لسحق المغرب العربي أيضاً، فطلب من ابن خلدون وضع خرائط مفصلة له، فوضعها ابن خلدون في عدة رسائل وقدمها لتيمورلنك... وهو ما لا يمكن وصفه إلا بأنه عمل خياني متساقط، إذا لم نرغب بالإسراف بالأوصاف.

والحقيقة أن ابن خلدون الذي نعرفه اليوم ليس نفسه ابن خلدون الذي عرفه ذلك العصر. وسبق الذكر أن ابن خلدون بدأ سياسياً مهتماً بالفكر والعلم، وراكم خبرة عقود من العمل السياسي، كموظف دولة كبير تارة، وكتنقلابي طوراً، وقد كان ضليعاً بالمؤامرات والفتن، وكان انتهازياً منافقاً لا يؤتمن له جانب، حتى ضجّ به أمراء وحكام المغرب العربي فانتقل إلى مصر حيث لم يكن معروفاً إلا كصاحب علم وفقه، ورغم ذلك، جاءت قصته مع تيمورلنك عند أسوار دمشق وهو في مهمة تفاوضية لحكام مصر في سورية، بعد اعتزاله العمل السياسي...

العدد رقم (38) صدر في 1 تموز عام 2017 للميلاد

أما قبل الاعتزال، فالإيكم بعضاً من سجله التأمري (بحسب مجلد "أعلام الفلسفة العربية" لليازجي وكرم، ص 809): "... الدسّ على سيده أمير تونس، وتسهيل مهمة خصمه أمير مراكش في حملته على تونس، وفراره إلى فاس - عاصمة مراكش - بعد فشل الحملة، والتحاقه بالبلاط المراكشي (1356 م)؛ ومنها تأمره على سلطان فاس لحساب حاكم بجاية (الجزائر)، على أن يوليه الوزارة، وقضاء عامين في السجن على أثر اقتضاح أمره (1357-1358 م)؛ ومنها مراسلة سلطان تلمسان، وهو في خدمة ملك قسنطينة، وتحريضه عليه (1365)؛ ومنها - بعد التحاقه بسلطان تلمسان - الدسّ على سيده لمصلحة سلطان مراكش (1366 م)".

وبشكل عام، كان ابن خلدون السياسي لا يتورّع عن خيانة أو تقلب في الولاء، لكنه فشل في السياسة فشلاً ذريعاً وحبطت كل محاولاته الواحدة تلو الأخرى، كان الله أراد أن يدخره للعلم والفكر، وإن كان دبلوماسياً بارعاً، نجح في المهمات التي قام بها لأخرين، وفشل في كل محاولة تأمرية قام بها لنفسه، وبعدما انعزل أربع سنواتٍ للدراسة والتأمل، خرج بالمقدمة كحصيلة لتجربة سياسية غنية، وقراراتٍ ثرية ومعقدة.

ويشير بعض الكُتّاب لتناقضات في توجّهات ابن خلدون إزاء مسائل كانت لا تزال حساسة في عصره، منها الموقف من الحسين واستشهاده، ومنها الموقف من الأمويين، والعلويين، وغير ذلك، فيبدو متقلّباً بشأنها، ويعزو بعض الكُتّاب ذلك لحسه الدبلوماسي، وحساسيته من إثارة الأحقاد عليه، ويقول بعضهم الآخر أن ذلك يعود لتغيّرات طرأت على قناعات ابن خلدون خلال سنوات مراجعة وتنقيح المقدمة، وربما يكون ذلك لعبث في محتويات المقدمة في جوانب الورّاقين قبل الطباعة الحديثة، الله أعلم. ولا يغير كل ما سبق من حقيقة أن ابن خلدون كان مفكراً ريادياً مجدداً، أسس لفلسفة علم اجتماعي جديد لا تزال أكثر اتصالاً بواقعنا من الكثير من النظريات الغربية المسقطة اعتباطاً على ظروف مجتمعاتنا.

المهم أن العصبية القبلية التي مجدها ابن خلدون لا تزال كارثة الكوارث في مجتمعنا العربي، فالعصبية القبلية التي تنتجها الصحراء باتت متأصلة في عقلنا الجمعي للأسف، خارج الصحراء، وفي قلب المدن، وفي حياتنا السياسية العربية، وحتى في أجزابنا السياسية.. وقد بنّنا نعيد إنتاجها بطرق مختلفة في حياتنا العربية المعاصرة، فهي التي تجعلنا نستبيح كل شيء خارجها، ونمتلك منظومتين للأخلاق، واحدة داخلها وأخرى خارجها، وهي التي تجعلنا نتعامل مع الشأن العام والملكية العامة كغنائم، والتي تجعلنا نتأفف من العمل ونكرهه ونعتبره مصدراً للمهانة، وتجعلنا نعطي "العلاقات" أولوية على الكفاءات. إن العصبية بأنواعها، القبلية وغير القبلية، باتت عائقاً حقيقياً أمام فكرة المواطنة نفسها، ونشير هنا لما نوه له شيخ المؤرخين العرب عبد العزيز الدوري في كتاب "دراسة في التكوين التاريخي للأمة العربية" من أن تبلور الأمة العربية نشأ في كنف الدول العربية المركزية مع انحلال القبائل المختلفة في شعب واحد.

لقد باتت تلك العصبية اليوم عائقاً رئيسياً أمام نشوء حركة شعبية عربية منظمة، لا لنشوء دولة قومية مركزية فحسب، مع أن النمط الإنتاجي القائم على البداوة المتوحّشة وما دونها لم يعد قائماً أو رئيسياً كما كان أيام ابن خلدون، إنما الذي استمر هو منظومة قيمية تعيد إنتاج العصبية الصغيرة التفكيكية دفاعاً عن النفس، خصوصاً مع ضعف الدول المركزية القوية. وقد كانت المرة الأخيرة التي شهدنا فيها صراعاً كبيراً بين البدو والحضر هو غزوات الوهابيين في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر على العراق وسورية، ودخول صاحب المشروع النهضوي التتويري إبراهيم باشا إلى الجزيرة العربية لتحطيم الوهابية وروحها التدميرية، ولولا تدخل خمس قوى استعمارية على رأسها بريطانيا، لرأينا دولة المواطنة العربية، فوق أي انتماء أو عصبية، هي التي تفرض نفسها، لكن التدخل الاستعماري هو الذي دمر المشروع النهضوي العربي الذي حملته محمد علي باشا وسمح بإعادة بعث روح الدمار الوهابي وصولاً للقرن العشرين، ومن ثم جاء الصراع البدوي-الحضري مجدداً على شكل حرب عربية باردة بين مصر عبد الناصر ومملكة آل سعود، وجاءت لعنة النفط لتنتشر روح الدمار الوهابية المنبعثة من لهب الصحراء في كل حياتنا وثقافتنا العربية المعاصرة من جديد. إن البادية مكون أساسي من مكونات الأمة العربية، له دوره المهم الذي يمكن أن يلعبه فيها على أساس قاعدة المواطنة المتساوية في الحقوق والواجبات، أما الوحدة القومية فتقوم على خضوع النقاط المتخلفة للنقاط المتقدمة حضارياً، وليس العكس.

القبلية

علي بابل



يُرجع الكثير من نخب ومفكري العرب التخلف المستشري في أوردة وشرابين المجتمع العربي إلى طبيعة الثقافة الأبوية التي تمثل "الوضع الطبيعي" في كل بيت عربي تقريباً، وإن كانت تأخذ أشكالاً متعددة منها ما يعتقد البعض أنه إيجابي بحيث يشكل ضابطاً أخلاقياً للمجتمع، بالرغم من أن الدراسات السيكولوجية أثبتت أن الأبوية تولد ظواهر اجتماعية سلبية منها التسلط والاتكال. يتوقع من قارئ المقال أن يتفق مع الكاتب على أن التخلف حالة راسخة وموجودة في المجتمع العربي، وهي حالة تم تأصيلها وترسيخها خلال خمسة قرون على أقل تقدير من التراجع وحالة الانحطاط التي أصابت الوطن العربي عموماً. ظاهرة التخلف تعشعش في كل مكان، ابتداءً من الأسرة العربية الصغيرة، المدرسة، السوق، المسجد، الكنيسة وصولاً إلى أعلى هرم السلطة الذي يتحكم ويحافظ على البناء الفوقي المتخلف الذي يركز على الثقافة القبلية وما يتبعها من ظواهر ملحقة متخلفة.

ظاهرة التسلط تظهر جلياً في المجتمعات المتخلفة عموماً عربية كانت أم غير عربية، والثقافة القبلية والأبوية التي تعتمد على شخص أو شخص معينين في إدارة أمور جماعة ما، أكانت كبيرة أم صغيرة في بيت عائلة صغير أو مؤسسة حكومية أو مؤسسة خاصة، هذه الثقافة القبلية تفاقم من دور التسلط في إدارة المجتمع

وتجعله عامل كبت وضغط بل وتحقير لكل أفراد المجتمع على اختلافهم. ظاهرة الأبوية والأمومية تدفع بالتسلط لأعلى هرم القمة داخل المجتمعات المتخلفة بحيث تصبح حياة الفرد الشخصية عبارة عن قرارات تتخذ من قبل أفراد آخرين بدايةً بالأب والأم أو الأخ الأكبر، الزوج، رئيس الحزب، إلخ... ما يدفع الفرد لحالة من الاستسلام والتخلي عن مستقبله والتسليم بالقضاء والقدر الذي يوضع من قبل أشخاص آخرين ففي بعض الحالات لا يهمهم أمر هذا الفرد إلا بقدر مصلحتهم الشخصية والمنافع التي ستعود عليهم في حال تم توجيه الفرد لاتجاه معين.

إن سيطرة الثقافة القبلية وبالتالي الأبوية على المجتمع العربي تنتج ما نراه الآن من اقتتال طائفي في الوطن العربي، وهي سبب الشرخ الذي يصيب دول "الاعتلال" العربي ممثلة بدول مجلس التعاون الخليجي الذي تتنافس مشيخاته لنيل الرضى الأمريكي. (النزاع السعودي- القطري مثلاً يمثل الثقافة القبلية في أعلى تجلياتها داخل المجتمع العربي). إن تصنيف جزء من المجتمع العربي إلى موالى منذ العصر الأموي (كل فرد أو جماعة ضعيفة تنسب نفسها لقبيلة عربية قوية من خلال عقد تحالف ما معها)، والاعتماد على "فئات" معينة من المجتمع لإدارة المجتمع بحسب ولائها السياسي أو الديني لا يزال هو الأساس في منظومة الحكم العربي، وبما أن السلطة هي التي تنتج أو تحافظ على البنية الفوقية داخل المجتمع فلا بد من أن تبقى هذه المنظومة هي الأقوى والأقدر على الإمساك بزمام أمور السلطة وإن كانت النتائج سلبية دائماً. كيف لا ونحن قد رأينا النتائج التي حققتها "الثورات العربية" في القرن الواحد العشرين، وهي نتائج سلبية بالتأكيد لأنها انطلقت أساساً من الاعتماد على الثقافة القبلية الإقطاعية في بعض الأحيان، وإن كانت على شكل أحزاب قومية أو يسارية فهي في النهاية لم تتخلص من الإرث القبلي القديم، حتى وإن كانت ظاهرياً تمثل حائط صدٍ للدفاع عن الأمة العربية، بعيداً عن إنكار منجزات جمال عبد الناصر الضخمة، إلا أنها في النهاية قضت عليها بمجرد موت شخص جمال عبد الناصر.

العدد رقم (38) صدر في 1 تموز عام 2017 للميلاد

في غياب لمفهوم الدولة العربية التي تستطيع الدفاع عن مواطنيها في أي بقعة على وجه الأرض بغض النظر عن الانتماء السياسي أو القومي أو «العراقي»، تصبح القبيلة والعائلة هي المجال الحيوي للفرد وتصبح الأرض الوطن هي مكان تواجد هذه العائلة حتى في دول المهجر. إن الدولة التي لا توفر الحماية لمواطنيها من الأذى الداخلي أو الخارجي هي دولة لا تستحق الحماية من قبل أفرادها ولا الأفراد سيعتمدون عليها في حالات الصراع والنزاعات داخلية كانت أم خارجية، فهي في النهاية لا تعتبر وطناً لدى هؤلاء. العراق وسورية أمثلة حية معاصرة على تخلف البنية الاجتماعية في الوطن العربي. عندما بدأ غزو العراق في العام 2003 تفرّق الشعب العراقي إلى فئات تعتمد أساساً على القبلية والانتماء العرقي؛ الكرد تحالفوا مع الأمريكان، وقبائل الجنوب وجزء من القبائل الكبيرة في الوسط تحالفت مع الأمريكان؛ الجنوب وقف مع إيران بحكم الانتماء الطائفي من جهة والجغرافيا من جهة أخرى. بعد سنة أو سنتين على احتلال العراق حتى القبائل انقسمت بحسب الانتماء الطائفي في كثير من الحالات بفعل العوامل الخارجية التي أحيت النزعات الطائفية الكامنة في دواخل الفرد العراقي أساساً. هنا يثبت فشل الدولة العربية القطرية في بناء دولة «مركز» لم تستطع إنتاج وخلق مجتمع متماسك خلال ثلاثين عاماً من الحكم والعمل!!!!

الحرب على سورية أشعلت المجتمع العربي من المحيط إلى الخليج، واستطاع صنّاع الحرب ضد سورية بكل سهولة تقسيم الشعب العربي بين طائفي يدافع عن طائفته بحجج إنسانية تغذيها وسائل الإعلام والأنظمة الرجعية في الوطن العربي وفي الغرب بشكل كبير، وقسم آخر يدافع عن طائفته دفاعاً يراه وجودياً عقائدياً في بعض الأحيان، وقسم استطاع فرز نفسه والدفاع عن الوطن لا عن أفراد، الدفاع عن شعب كامل بغض النظر عن هويته وذلك من خلال الاستناد إلى أن الدولة السورية هي الممثل الشرعي للوطن السوري والشعب السوري. هذا الانقسام في سورية هو نتيجة طبيعية لعدم بناء مجتمع مدني يؤمن بأن الدولة هي للجميع، صحيح أنّ هناك قسم كبير من الشعب السوري وقف مع الدولة بسبب أيديولوجية قومية أو وطنية، ولكن هناك قسم آخر كبير نسبياً وقف موقفاً طائفيّاً بسبب العقليّة القبليّة التي لم تستطع الدولة السورية على مدى أربعة عقود محوها واستبدالها بثقافة الدولة المدنية ولو بحدّها الأدنى. وهذا لا يعني أن الدولة السورية هي الملامة على ذلك وحدها، أو أنها عمدت إلى هذا البناء الاجتماعي والنفسي للشعب السوري، بل هو نتيجة طبيعية لطريقة بناء الأنظمة العربية مجتمعة، وإن تفاوت نوع هذا البناء بين رجعي متخلف همجي كما في السعودية مثلاً وبين بناء علماني مدني ظاهرياً في سورية.

صحيح أن العوامل الخارجية لها دورٌ أساسيٌّ وفاعلٌ في إحياء النزعات الطائفية والفئوية داخل المجتمعات العربية، ولا يصح أن يتم استبعاد هذا العامل إن كان في العراق أو في سورية أو الجزائر، إلا أن المقال يتمحور حول البنية الاجتماعية داخل الوطن العربي والتي هي ثمرة تاريخ طويل من الرضوخ والانحطاط الفكري. هذه البنية الاجتماعية القبليّة التي تستجلي عقلية القبائل البدوية المندثرة عند أول خطر يواجه وجودها الذي يمكن أن يأخذ أشكالاً مدنية أو منظمة تنظيمياً حديث الشكل ظاهرياً كما في المؤسسات المدنية من وزارات وجمعيات سياسية أو أحزاب أو نقابات.

ثقافة المقاومة، على سبيل المثال، في لبنان، وتحديدًا في جنوب لبنان، هذا المثال الإيجابي الذي استطاع حاملوه تحرير ما فشلت الأنظمة العربية في تحريره في جنوب لبنان، تعتمد أساساً على البيئة الحاضنة في لبنان المكوّنة من الطائفة الشيعية أي أنها ثقافة نجحت ضمن شروط الثقافة القبليّة، وبالتالي فإنها غير قابلة للتطبيق مثلاً في قطر عربي آخر لأسباب تتعلق بالبنية الاجتماعية للأقطار العربية الأخرى أو للبيئات الاجتماعية العربية العديدة، وإن كانت جميعاً تمتلك ظروفاً مشتركة وأملاً واحدة تقريباً. وهنا يأتي مفهوم الدولة القومية بديلاً استراتيجياً لكل التجارب السابقة السلبية منها والإيجابية. الدولة القومية لا الوطنية المبنية أساساً على ثوابت سياسية محددة ومشروع نهضوي شامل يركز على مفهوم الكفاءة والجدارة في العمل الذي يعبر عن أوسع تيار شعبي عربي يريد عودة الحقوق لأهلها من خلال العمل ضمن ثوابت الأمة التاريخية التي تركز على ثلاثة نقاط أساسية:

1. الوحدة: مفهوم الوحدة القومية للعرب يحمل صيرورة تاريخية تشمل كل أبناء الأمة العربية وكل أجزاء الوطن العربي الكبير، لذلك فإن رفع هذا الشعار والعمل لتطبيقه هو أساس الدولة القومية التي هي وحدها ومن خلال هذا الشعار تستطيع تفكيك البنية التقليدية «القبليّة» داخل المجتمعات العربية لأن من لا ينتمي لهذا الوطن أو لهذه الدولة يضع نفسه خارج حسابات الوطن، بل سيكون في النقيض الآخر.

العدد رقم (38) صدر في 1 تموز عام 2017 للميلاد

2. التحرير: إن التحرير الكامل للأراضي العربية المحتلة وعلى رأسها فلسطين المحتلة من بحرهما إلى نهرها يحتاج لجهود جبارة من أبناء الأمة العربية. والعمل من خلال شعار التحرير الشامل يولد بيئة اجتماعية إيجابية تبنى فيها الأرواح من أجل الوطن لا الجماعة المحصورة باسم قبيلة أو حزب، التحرير هو تيار عريض واسع يُصهر جميع فئات الشعب فيه من خلال صيرورة الوحدة بين كل أفراد الشعب وكل أجزاء الوطن التي يساهم فيها الجميع.

3. النهضة: النهضة تسير جنباً إلى جنب مع الوحدة والتحرير لأن الأمة العربية قادرة على دمج هذه الأهداف معاً من خلال مشروع عربي شامل وإن بدأ من خلال قطر جغرافي معين إلا أن الثقافة التي سيولدها خلال مسيرته ستكون الدافع الأساسي للوحدة والتحرير، والنتائج التي ستظهرها النهضة ستكون السبب في تكسير بُنى المجتمع التقليدية وعلى رأسها القبلية. فالنهضة الثقافية تعني هنا الثورة الثقافية المتمردة على كل قديم بال أو جديد مبتدع يكون عاملاً كابحاً في طريق الوحدة والتحرير كالنزعة الإنسانية المخترقة مثلاً المتغطية بعنوان "اليسار الديمقراطي"!

الدولة القومية التي ننشدها لا تستطيع حمل هذه المشاريع من خلال سلطة أبوية يكون رأس السلطة فيها هو الأمر النهائي أو مؤسسة ما هي المتحكمة بأمور المجتمع، ولن تنتصر من خلال قبضة أمنية حديدية تفرض على المجتمع، بل هي انصهار لا توافق، ذوبان لا تعايش بين أفراد الشعب، حكم عادل لا مساواة ظاهرية بين طبقات الشعب ضمن قوانين الاقتصاد السياسي الثورية التي ستكون هي أيضاً عاملاً أساسياً في صهر العقليات القبلية والأبوية تحديداً ضمن نهر الثورة والنهضة التي ستنتصر على أي عدو خارجي وعلى كل مشاريع الرجعية العربية التي ستكون العدو الأول للدولة القومية والمدنية، لأن كل انتصار تحفقه الدولة القومية المنشودة هو طعنة خنجر في صدر الرجعية العربية.

إن تفكك المجتمع العربي إلى "سيفساء" مختلفة بين عرقية هنا وهناك وقبيلة، عشيرة وطائفة يؤدي إلى ضعف المجتمع العربي بكل تأكيد، فالقبيلة لا تستطيع الدفاع عن نفسها لوحدها لذلك نرى بعض القبائل في العراق مثلاً أو في "جنوب السودان" قبل التقسيم ترتمي في أحضان الإمبريالية أو الرجعية العربية لكي تحمي نفسها. كذلك من يسمون أنفسهم "أقليات" يستغلون ضعف الدولة المركزية للانفصال بدعم مباشر من دول الجوار والغرب وأحياناً من دول "الاعتلال العربي" أو الكيان الصهيوني. لذلك لا بد من تكسير العقليات العربية التقليدية كما فعل محمد علي باشا عندما كسر القبائل العربية وكل من وقف في وجه جيش إبراهيم باشا خلال حملة توحيد الوطن العربي في القرن التاسع عشر وخلق دولة المواطنة.

قراءة في كتاب العقل العربي في القرآن (3) – عن الوحدة في منطق القرآن

محمد العملة

عرّفنا العقل في الجزء السابق على أنه مجموعة إجراءات حركية وذهنية بهدف الإحاطة بالأشياء وإدراكها ثم التمكن منها أو معالجتها، وخلصنا إلى أن اللغة نتاج إنساني له علاقته المباشرة مع الزمان والمكان والمجتمع، وعليه فإن أي مُفردة ضمن هذه اللغة أو تلك تأخذ دلالتها ومعناها من نفس العناصر، أي من الزمان والمكان والمجتمع؛ فالمقتضيات المسوغة لاستخدام مفردة "العقل" هي نفسها علاقة العقل مع العناصر السابقة.

الدافع لإبراز هذه العلاقة هو محاولة فهم مكونات العقل، وفهم البيئة التي ولدت فيها المفردة وقياس أثر الزمان عليها، أو بحسب ما يقول سعد كموني -مؤلف الكتاب-: "في الحقيقة لا يطرأ التغير على المفهوم بمرور الزمن فحسب؛ بل يطرأ ذلك بنطور الوعي الناتج عن أثر مرور الزمن على الكون وأشياءه، وأثر ذلك في كينونة الإنسان وسيرورته، وينعكس ذلك كله على المفاهيم تغييراً وتطويراً".

لنبدأ بالمكان الذي شهد ولادة مفردة العقل في البيئة العربية، تلك الصحراء الممتدة في جزيرة العرب والفالطة أمام الأعين باتساعها، المكان الذي لا ينتج أي شيء إلا بالقوة، والذي يعطي للعقل بُعداً تأسيسياً يحدد طريقته في التشكل ويصنع منطقاً.

شرحنا في الجزء السابق أثر المكان في الوجدان العربي المُعبّر عنه بالشعر، وتأثيره البنيوي في تأسيس الذات العربية، وبالتالي دوره في تأسيس اللغة نفسها بوصفها سجلاً للتجارب الإنسانية لهذا المجتمع، والعربي إذ تلقى القرآن بلغته التي تمثل سجل تجاربه وهو يواجه مكاناً قاهراً من جهة، فإنه من جهة أخرى يأخذ مرجعية معرفية من نفس المكان وعليه أن يعرف كيف يستفيد منها عند السياحة فيه، استفادة أعني بها مواجهة هموم العيش ضمن مكان معين، أو ما يمكن أن نسميه الزمان.

الزمان الذي يعنيه سعد كموني في كتابه هو الزمان الوجودي المصبوغ بالانفعال، كزمان الانتظار والأمل، وما يعيشه المرء في تحقيق وجوده في إطار الزمان الفردي لا يعدو إلا عنصراً في نضال الجماعة ككل لتحقيق وجودها، فهو ليس إضافة لها بل جزء من تكوينها.

ألا أيُّ هذا اللانمي أحضر الوغي ... وأن أشهد الذّات، هل أنت مُخلدي؟
فإن كنت لا تستطيع دفع مني ... فدعني أبادرها بما ملكت يدي

في البيتين السابقين من معقّلة "طرفه بن العبد" يشرح الشاعر معاناته مع الزمان الذي يجعله تحت وطأة اللوم والظلم، مواجهاً ذلك بإصراره على الحياة بكل قدراته الممكنة، فالموت والحياة ثنائية تلاحظ بمنظار العناد للزمان القاهر.

بما أنّ العقل مجموعة إجراءات ذهنية وحركية، فلا بدّ له إذا أن يكون الدافع لمواجهة مصاعب الزمان والمكان، وبحسب الافتراض القائل أنّ هموم العيش في المكان هي الزمان، يصبح الضبط والاكْتِناف والحدّ والسيطرة -كمعانٍ للعقل شرحناها في الجزء السابق- مواجهة لهوموم العيش لدى الفرد والجماعة، فإذا قلنا أنّ الضبط يواجه همّ الفوضى، والسيطرة تواجه هموم التقلت والتمرد، والحدّ يواجه همّ الاندفاع، والاكْتِناف يواجه التسيّب؛ فإننا هنا نجعل العقل بتجاربه وخبراته المعرفية بمواجهة كل هذه الهوموم التي ناضلت من أجلها الذات العربية في محيطها.

الأمر الآخر الذي يجعل من الزمن مكوّناً للعقل هو معيار تصنيف الموجودات بين حسنة وقبيحة، والزمن هنا يترك أثره في العقل بشكل واضح، فما هو قبيح اليوم ليس بالضرورة أن يكون كذلك في الماضي أو المستقبل. كل هذا يفسح عن علاقة العقل الجبرية مع الزمان والمكان بمقتضى الواقع المتطور على الدوام.

أما عن علاقة العقل بالمجتمع؛ فقد قلّت في السطور السابقة أنّ نضال الفرد في مواجهة هموم العيش جزء من نضال الجماعة ككل، وما الجماعة إلا اجتماع الرهط على غرض واحد هو تحقيق الأمن والسلم، ولا يتحقق هذا الغرض إلا بتوافر الوئام بين أفراد الجماعة.

يقوم الوئام على الموافقة والمقاربة؛ مما يجعل الإجراءات الذهنية والحركية العاقلة مطبوعة بهذا الهاجس، لكن تحققه (أي الوئام) لا يعني أن على الأفراد أن يكونوا نسخاً متشابهة، وقد قيل في الأثر العربي: "لن يزال الناس بخير ما تباينوا؛ فإذا تساوا هلكوا". ثنائية الوئام والتباين تحمل في طياتها مؤدّى واحداً، الوئام يحفظ الاختلاف والتباين، والتباين هو مشهد العلاقة وتجليها تحت مظلة الوئام. إننا نتحدث إذاً عن ثنائية تمثل المرجعية الاجتماعية المكوّنة للعقل، ومن خلال دلالة معنى العقل يصبح ضبط واكْتِناف ثنائيات الأمن والخطر، والداخل والخارج، والحجب والكشف إجراءً ذهنيّاً يكفل استمرارية هذه الضديّات ومواءمتها مع بعضها.

بهذه العناصر الثلاثة يتكون العقل، ومن البيهني أنني لا أعني مكوّنات مادية، بل نتاجاً معرفياً يشكّل في مجموعته العقل الذي نعنيه، ذلك العقل الذي يمكن الفرد من تحديد حضوره في المكان وضبطه ضمن الجماعة التي ينتمي إليها، ليحقق العيش ويواجه فيه هموم الحياة على اختلافها مؤمّناً إقامته في زمانه، ومحققاً الوئام مع مجتمعه الذي يعيش فيه.

كانت العرب متفرقةً على قبائل عديدة، يحكمها سلوك العشيرة، تعظّم أصنامها وأوثانها، وتغزو بعضها البعض في بيئة صعبة بيّناً أثر الزمان المتعدّي على المكان والمجتمع فيها، وفسوة المكان بصحرائه المترامية، وتتبع آباءها ورؤوس القوم فيها، كما كانت تعتقد بوجود مخلص ما سيأتي ليجمعها على راية واحدة، لكن ذلك المخلص لم يكن ليحقق غرض الوحدة ما لم يقلب واقع الحياة الاجتماعية عند العرب، أي بتغيير مفاهيم وعادات نفذت في وجدان القوم وشكّلت ملامح العقل عندهم، فكان قبولهم الأمر المُحدّث صعباً جداً.

يروى ابن هشام في السيرة أن قريشاً قالت لنبي العرب عند اجتماعها معه في بداية دعوته: "يا محمد، إنا قد بُعِثنا إليك نكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الأبياء، وعبّثت الدين، وشتمت الآلهة، وسفّهت الأحلام، وفرّقت الجماعة، فما بقي أمرٌ قبيحٌ إلا قد جنته فيما بيننا وبينك - أو كما قالوا له - فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فيما، فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رياءً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رياءً - فربما كان ذلك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه، أو نعدرك فيك".

فقال لهم نبي العرب محبباً: "ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا المُلْك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم أو كما قال".

العدد رقم (38) صدر في 1 تموز عام 2017 للميلاد

نتلمس في قول القوم "إنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك" غيرة صادقة على قومهم، لكن الأمة كانت في أذهانهم مرتبطة أولاً بمفهوم القبيلة ولم تعن الأمة بمفهومها الواسع، فالحال أنهم لم يفهموا المقصود من دعوة نبي العرب لهم، لأن عقولهم جُبلت على مرجعية أخرى في تفسير الأمور قوامها ما تعارف عليه العرب من رفعة المنزلة، كالمال والجاه والسيادة، فظنوا أن إحداث النبي لأمر جديد لم تكن فيهم هو طمعه في المنزلة الرفيعة، وفي جانب آخر ظنوا فيه الجنون -والمجنون عند العرب من كان على صلة بالجن- فوعدوه ببذل العلاج له.

عقل القوم لخص دعوة النبي بأنها مهاجمة لألهتهم وأبائهم ودينهم، كما اتهموه بتسفيه أحلامهم، وكل هذه الممارسات والأفانيم كانت تمثل جوهر الحياة في جزيرة العرب عند مجتمع القبيلة، فلأبى دور أساس في حياتهم، أما أصنامهم وأوثانهم فهي رمز القبالية أي الوجود لديهم، والعرب كانت تعوض الفقر الشعائري لقلّة المعابد بالمتاع الشعائري الممثل بالأصنام والأوثان. هي إذن ممارسات تحدد علاقة الفرد مع نفسه ومع مجتمعه.

يمكننا الآن فهم ما عنيناه بأن المتلقي هو المنتج للنص من خلال فهمه ومعارفه المسبقة -الهرمنيوطيقا الخاصة به-، فريش فهمت الخطاب النبوي بما تركه أثر الزمان والمكان والغرض الواحد للمجتمع في تكوين عقولها، أي من خلال نتاج خبرتهم في بيئتهم، وردهم كان بلغتهم التي هي سجل التجارب الخاص بهم كقبيلة من قبائل العرب.

- بينما يقوم الخطاب النبوي المستمد من القرآن على الدعوة إلى أمرين هما جوهر رسالة الإسلام كله:
1. التوحيد كمضاد لكل ما له علاقة بسلوك القبيلة ممثلاً برمزية الأوثان واتباع الآباء.
 2. العدل والاستقامة كمضاد لممارسات تعزز من الواقع الاجتماعي القبلي.

في مروية حديثة منسوبة للنبي العربي محمد بن عبدالله يقول سفيان بن عبدالله سائلاً النبي: "قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك" -طلب منه أن يعلمه كلاماً جامعاً لأمر الإسلام كافياً حتى لا يحتاج بعده إلى غيره-، فقال له النبي: "قل أمنت بالله، ثم استقم".

جوهر التوحيد والعدل يحمل مفاصل ثلاثة أوردتها الخطاب القرآني في سبيل بحث العلاقة بين القرآن والآباء، القرآن والدين، والقرآن والحياة الاجتماعية، ولا ضير من إعادة القول أن القرآن جاء عربياً بلغة القوم الذي نزل فيهم، ليخاطبهم بما يمكن أن يعقلوه.

في المفصل الأول يتحدث السياق القرآني عن العلاقة مع الأسلاف والآباء وهي عظمة الشأن عند العرب، ولعل المحتجين بأبائهم هم المخاطبون في الآية القائلة: "وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوهُمْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ".

التوبيخ في الآية السابقة ليس لاتباعهم آباءهم، بل لأن المخاطبين فيها لا يأخذون ما سمعوه من آبائهم بعقل الرعاية والنقاش، فالأمر لا يتعلق باتباع الآباء في المطلق، بل في حالة كونهم لا يعقلون ولا يهتدون.

هذه كانت حالة العقل العربي الذي يؤكّد عليه السياق القرآني في موضع آخر بقوله: "وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ"، وأيضاً: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَذَا قُلْ إِنْ كَانَ اللَّهُ لَيَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ لَفَعَلْنَا اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ".

يأخذ القرآن على القوم مرة أخرى خنوعهم واتباعهم لأبائهم دونما تدقيق، ويؤنبهم في جعلهم لأبائهم مصدر علم لهم، واعتقادهم أن سلوكهم مرضاة لله، ولعلنا نتلمس في الأثر المتناقل ما له علاقة بحديثنا والذي خاطب فيه أبو الوليد عتبة النبي قائلاً: "يا محمد، أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟".

لنلاحظ أيضاً أن سياق الآيات السابقة يختتمها بلا تعلمون، لا يهتدون، لا يعقلون، وكلها كناية عن عدم الهداية في الإجراءات الذهنية والحركية التي يمارسونها.

العدد رقم (38) صدر في 1 تموز عام 2017 للميلاد

المفصلان الثاني والثالث يتعلّقان بالدين والحياة الاجتماعية، والدين ما دان المرء به؛ وما يكون عليه الإنسان من انقياد وطاعة، فهو القانون الناظم لشبكة العلاقات الاجتماعية في مجتمع القبيلة، والعرب لم تكن على دين واحد، منهم الوثنيون، ومنهم اليهود والمسيحيون والحنفاء، فكانت المسيحية في ربيعة وغسان وبعض بني قضاة، وكانت اليهودية في نمير وبني الحرث وكندة، وهؤلاء من أسماهم القرآن أهل الكتاب ودعاهم إلى كلمة سواء بينهم، أما الوثنيون وهم جُلّ العرب فكانت شركيتهم لله بتعظيم أصنامهم وحكاياتهم مع الجن والغيلان جوهر السلوك القبلي المضاد للتوحيد، أي المانع لوحدتهم في أمة واحدة، حتى أن تلبيتهم خلال الحج الجاهلي إلى مكة لم تكن هي نفسها!

لكنّ هذا لا يعني أن العرب لم تكن ترى في ممارساتها الخطأ، فهذا زهير بن أبي سلمى عندما كان يمر بالعضاة (النبته) وقد أوقفت بعد يبس على ما يورد الشهرستاني كان يقول: «لولا أن تسبني العرب لأمنت أن الذي أحياك بعد يبس سيحيي العظام وهي رميم». وفي قول منسوب لقيس بن ساعدة: «يقسم قس بالله قسماً لا إثم فيه إن الله ديناً هو أرضى له وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكراً». إن هذا لا يعني أنه لم تكن هناك محاولات للانقلاب على الواقع القائم، ولكنها كانت محاولات خجولة أو أنها تخشى الاصطدام بالقوم بشكل مباشر، ولعل الأحناف هم أكثر من حاولوا، لكنهم أتوا بملة أرادوا بها تغيير واقع العرب لكنهم أغفلوا جانب الدين أو القانون الذي يجمع القوم على غرض واحد هو الوحدة، ومنها محاولات جمعت بعض القبائل على روابط تنظّمهم في قانون واحد كرابطة الحمس التي قادتها قريش قبل دعوة النبي العربي.

إن الحياة الاجتماعية بما تعنيه من قوة للجماعة، فإنها أيضاً تعني تحقق الوئام -الذي تحدثت عنه في مطلع المقالة- والذي يشكّل الهوية المميزة للجماعة، لكنه وئام على مستوى القبيلة لا على مستوى الأمة. هذا الوئام، سعى الخطاب القرآني الذي دعا إليه النبي العربي أن يتممه، ونجده في كلام عمر بن الخطاب عند حديثه إلى بني عبد القيس إذ سألهم: «ما المرءة فيكم؟ قالوا: العفة والحرفة»، فالعفة هي الكف عما لا ينبغي، والحرفة هي الصناعة، أي أن المرءة تلخصت باجتناّب ما لا حاجة له والعمل، وهي أيضاً على ما ورد في الأثر أن النبي سأل رجلاً من بني ثقيف: «ما المرءة فيكم؟ قال: الإنصاف والإصلاح. فقال له: وهي كذلك فينا».

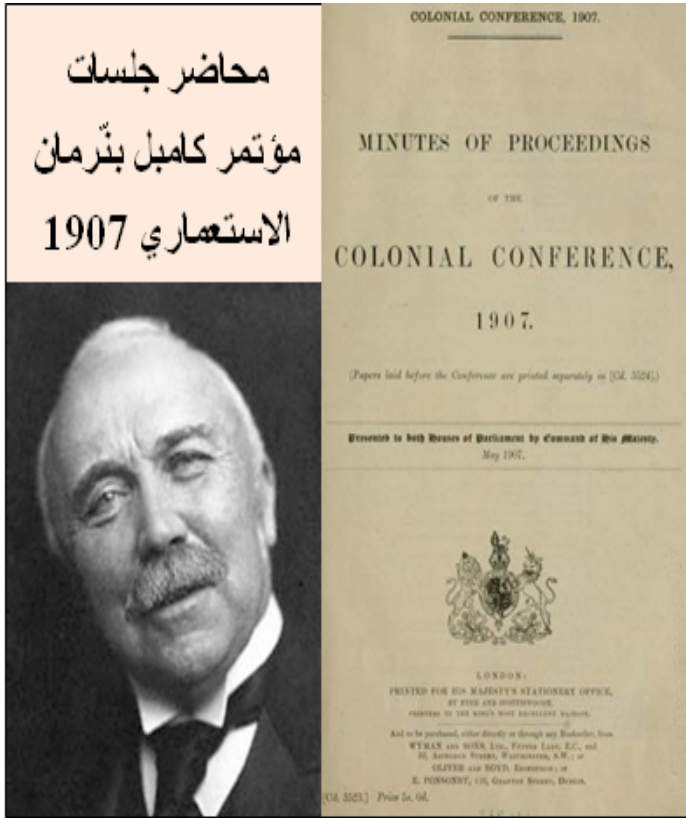
حرص العربي على المرءة من كونها برؤيته التي غدّتها التجارب الصعبة وسيلةً للأمن الاجتماعي في بيئة تهدد أهله باستمرار، والقرآن ربط كل هذا بدعوته إلى العدل والتوحيد كضامن للأمن الاجتماعي للأمة كلها.

كيف قبل العرب بالخطاب القرآني إذاً؟ هذا ما سيجيب عنه الجزء الأخير من المقالة.

يتبع..

أخطر من سايكس بيكو و وعد بلفور: وثيقة "كامبل بنرمان"

صالح بدروشي



محاضر جلسات
مؤتمر كامبل بنرمان
الاستعماري 1907

نودّ من خلال هذه المقالة تعريف الشباب العربي وتذكير بعض مثقفينا بواقعة خطيرة حصلت في تاريخنا المعاصر ويغفل عنها الكثيرون على الرغم من أنها كحقيقة واقعة تفسّر لنا الكثير ممّا يحدث اليوم في وطننا وما زالت تبعات هذه الواقعة إلى الآن تحاصرنا لمنعنا من التحرّر والانعتاق. وهذه الواقعة هي مؤتمر -1905 1907 الذي يجب ألا ننساه أبداً لأنه من أهم المحطات التي أسست لتقسيم الوطن العربي وللسعي المحموم لإضعافه وتكريس تخلفه.. وفي تقديرنا يجب إدراجه في مناهج التعليم وتدريبه لكل أبنائنا التلاميذ والطلاب في مختلف صفوف التعليم والتعريف به لدى معلمينا وأساتذتنا ليلقنوه لشباب الأجيال الصاعدة رجال المستقبل العربي. إنه اجتماع ووثيقة "كامبل بنرمان".

كامبل بنرمان هو رئيس وزراء بريطانيا 1900 إلى 1908 واشتغل قبلها في "إدارة الحرب والمستعمرات البريطانية" التي أسستها بريطانيا عام 1801 لإدارة حروبها ومستعمراتها. إن تأسيس إدارة خاصة بالحرب والمستعمرات كان بهدف استدامة خضوع الشعوب والبلدان المستعمرة للسيادة البريطانية. ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن حركة الاحتلال والتي سمّيت "استعماراً" لم تكن حالة عرضية أو أحداثاً عابرة للضرورة أملت بها بعض الظروف ولكنها ثقافة غربية مبنية على - الجشع - والظلم - والأناية - أي مرض سلوكي بُنيت عليه الدول الغربية التي لا تعرف

معاني الحرية والعدل رغم كثرة التّعني بها، وللتضليل أحاطوا هذه العناوين بالكثير من الدعاية المخادعة. وبالإضافة إلى طول فترة "الاستعمار"، فإنّ ما يؤكّد تجذّر هذا السلوك هو تأسيس وزارة خاصة دامت عشرات السنين تُدعى "وزارة الحرب وإدارة المستعمرات"! وخلال آخر أيام المرحلة الاستعمارية المباشرة قبل انطلاق المرحلة غير المباشرة (مرحلة الهيمنة الامبريالية)، بدأ المخططون الاستراتيجيون في هذه الوزارات يستشرفون قُرب أقول نجم الإمبراطوريات الاستعمارية وشرعوا يفكرون في كيفية الإفلات من قاعدة التبادل الطبيعي والتاريخي للحضارات لمّا تبلغ إحداها أوج تطوّرها وازدهارها ثم تبدأ مرحلة انحدارها لتتصعد أخرى مكانها. ففي بداية القرن العشرين كان أوج صعود الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى البريطانية والفرنسية. ولتبيان خطورة هذا المؤتمر الذي انعقد بالتحديد عام 1905، وهذه الوثيقة التي انبثقت عنه عام 1907، وإبراز بعدهما العملي على الميدان، فإننا سنتناول مثالين لهما دلالة كبيرة في مجال الحرب المسلّطة على الأمة العربية من قِبَل الدُول الغربية منذ أكثر من قرن ونصف من الزمان. المثالان من مراحل تاريخية مختلفة، أحدهما من فترة سابقة لمؤتمر كامبل بنرمان، وهي فترة حكم محمد علي باشا، والمثال الآخر بعد المؤتمر وهي فترة حكم جمال عبد الناصر.

وقبل تقديم الأمثلة وتقديم تعريف بهذا المؤتمر وهذه الوثيقة، تجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من إنكار المصادر البريطانية لمحتوى الوثيقة رغم اعترافها بانعقاد المؤتمر برئاسة "كامبل بنرمان" والادّعاء أن المؤتمر كان موضوعه:

العدد رقم (38) صدر في 1 تموز عام 2017 للميلاد

مؤتمر لأجل السلام ونزع السلاح مع دول مثل تركية العثمانية وألمانيا كما تم تسويقه إعلامياً مثلاً في جريدة l'ex-press du midi الفرنسية بتاريخ 11 ماي/ أيار 1907 (مع العلم أن الدولتين لم تكونا مدعوتين إلى المؤتمر). وقد زعم البريطانيون أن موضوع المؤتمر لم يكن كما ذكرته وأكدته عديد المصادر غير البريطانية وهو: محاربة المشروع القومي العربي كاهم خطر يهدد الطموحات الاستعمارية. فرغم إنكارهم فإن كل الوقائع التاريخية على أرض الواقع تؤكد كل ما ورد بوثيقة "كامبل بنرمان". لقد سبق لهم أن أنكروا وأخفوا اتفاقية سايكس-بيكو لتقسيم الوطن العربي بين القوى الاستعمارية لولا حصول الثورة الاشتراكية في روسيا القيصريّة التي كشفت وثائق الاتفاقية باعتبار روسيا قبل الثورة كانت طرفاً شريكاً في مؤامرة التقسيم السريّة التي تمت خلال سنة 1916 والتي أنتزع بموجبها أيضاً لبنان وفلسطين والأردن من بلاد الشام أو سورية أو سورية الكبرى.

التعريف بمؤتمر "كامبل بنرمان":

قام حزب المحافظين البريطاني عام 1905 بتوجيه الدعوة إلى كل من فرنسا وهولندا وبلجيكا وإسبانيا وإيطاليا لعقد مؤتمر سرّي يتم من خلاله وضع سياسة لهذه الدول الاستعمارية تجاه العالم وبالذات تجاه الوطن العربي، وقد استمرت مناقشاته لمدة عامين (1905-1907)، وفي نهاية هذا المؤتمر في عام 1907 انبثقت عنه وثيقة سرية سموها "وثيقة كامبل" نسبة إلى رئيس الوزراء البريطاني آنذاك هنري كامبل بنرمان. ولقد توصل المجتمعون إلى نتيجة مفادها: "إن البحر الأبيض المتوسط هو الشريان الحيوي للاستعمار لأنه الجسر الذي يصل الشرق بالغرب والممر الطبيعي إلى القارتين الآسيوية والإفريقية وملتقى طرق العالم وأيضاً هو مهد الأديان والحضارات. والإشكالية في هذا الشريان أنه يعيش على شواطئه الجنوبية والشرقية دول لا تقع ضمن الحضارة الغربية المسيحية ويوجد تصادم حضاري معها وتشكل تهديداً لتفوقها وهي بالتحديد الدول العربية بشكل خاص والإسلامية بشكل عام حيث في الأولى يوجد شعب واحد تتوفر له وحدة التاريخ والدين واللسان".

وإن أبرز ما جاء في توصيات هذا المؤتمر هو الإبقاء على شعوب هذه المنطقة مفككة جاهلة متأخرة وعلى هذا الأساس قاموا بتقسيم دول العالم من منظورهم إلى ثلاث فئات :

الفئة الأولى: دول الحضارة الغربية المسيحية (دول أوروبا وأمريكا الشمالية وأستراليا) والواجب تجاه هذه الدول هو دعمها مادياً وتقنياً لتصل إلى أعلى مستوى من التقدم والازدهار.
الفئة الثانية: دول لا تقع ضمن الحضارة الغربية المسيحية ولكن لا يوجد تصادم حضاري معها ولا تشكل تهديداً لها (كدول أمريكا الجنوبية واليابان وكوريا وغيرها) والواجب تجاه هذه الدول هو احتواؤها وإمكانية دعمها بالقدر الذي لا يشكل تهديداً عليها وعلى تفوقها.
الفئة الثالثة: دول لا تقع ضمن الحضارة الغربية المسيحية ويوجد تصادم حضاري معها وتشكل تهديداً لتفوقها (وهي بالتحديد الدول العربية بشكل خاص والإسلامية بشكل عام) والواجب تجاه هذه الدول هو حرمانها من الدعم ومن اكتساب العلوم والمعارف التقنية وعدم دعمها في هذا المجال ومحاربة أي اتجاه من هذه الدول لامتلاك العلوم التقنية ومحاربة أي توجه وحدوي فيها.

ولتحقيق ذلك دعا المؤتمر إلى إقامة دولة في فلسطين تكون بمثابة حاجز بشري قوي وغريب ومعاد يفصل الجزء الإفريقي من هذه المنطقة عن القسم الآسيوي ويحول دون تحقيق وحدة هذه الشعوب ألا وهي دولة "إسرائيل" واعتبار قناة السويس قوّة صديقة للتدخل الأجنبي وأداة معادية لسكان المنطقة.
لقد دعا مؤتمر بنرمان إذاً إلى إقامة دولة في فلسطين بالتعاون مع المنظمة الصهيونية العالمية لتكون بمثابة حاجز بشري قوي وغريب ومعاد يفصل الجزء الإفريقي من هذه المنطقة عن القسم الآسيوي ويحول دون تحقيق وحدة هذا الشعب العربي ألا وهي دولة "إسرائيل".

يشكل هذا المؤتمر النواة الأساسية التي انبثق عنها كل من اتفاقية سايكس بيكو عام 1916 ووعد بلفور عام 1917 ومؤتمر فرساي عام 1919 ومؤتمر سان ريمو عام 1920 ومعاهدة سيفر عام 1920 ومعاهدة لوزان عام 1923 وتم تتويجه بصور قرار الأمم المتحدة الظالم رقم 181 بتاريخ 29/11/1947 القاضي بتقسيم فلسطين وبالختام إعلان قيام دولة "إسرائيل" بتاريخ 15/5/1948 والتي لا تزال إلى يومنا هذا تستنزف وطننا العربي بحروبها المدعومة دعماً مطلقاً من القوى الإمبريالية كما جاء بتوصيات وثيقة "كامبل بنرمان".

لما انتبه محمد علي باشا واهتدى إلى طريق النهوض بالأمة العربية عبر مشروع نهضة عربية وحدوي شامل، انتبهت له دولة الاحتلال البريطاني وقامت بدعم وتحريض المحتل التركي العثماني ضد محمد علي باشا إلى أن تمكنوا من إفشال مبادرته الوطنية التي كانت قد أنجزت في وقت وجيز الكثير على طريق النهضة. تقدّم فيما يلي ملخصاً مختصراً لمبادرة محمد علي باشا:

عُرف محمد علي باشا الذي حكم مصر ما بين عامي 1805 - 1848م على أنه مؤسس مصر الحديثة حيث قام خلالها ببناء مصر والنهوض بها عسكرياً وتعليمياً وصناعياً وزراعياً وتجارياً.. وانتقل بمصر من "دولة بلا اقتصاد وبلا جيش" إلى "دولة ذات اقتصاد قوي... وجيش استطاع أن يحارب في أوروبا شمالاً... ووصل إلى الحبشة جنوباً... وإلى الحجاز شرقاً". ولما دخل محمد علي في حرب ضد المماليك في مصر قام بمطاردتهم في شوارع مصر لمنعهم من نهب المصريين وترويعهم... وبدخوله هذه الحرب ضد المماليك إلى جانب المصريين أحيوه وطالبوا بتنصيبه حاكماً، وبعد أن تمّ اختياره إبان الحكم العثماني، ليكون والياً على مصر، سنة 1805م، وبعد أن تخلص من المماليك، مصدر القلاقل السياسية والفوضى بعد أن أصبحوا عبئاً على الدول، وقضى نهائياً على تسلطهم وتحكمهم بمصر في معركة القلعة الشهيرة، وتمكّن من القضاء على نفوذ الإنجليز في معركة رشيد. ولما أنهى معاركه الداخلية مع المماليك وتمكّن من فرض قبضته على البلاد بدأ معركة بناء ونهضة مصر الغارقة في الجهل والتخلف وذلك بإرساء إدارة تتسم بالحزم والصرامة والقوة والعدل والقدرة على استنهاض الهمم للعمل الجاد. وأصبحت مصر تتسم بالاستقرار السياسي، لأول مرة في ظل الاحتلال العثماني.

كان أحد أهمّ مرتكزات سياسة محمد علي هو الاعتماد على النفس. فهذا الرجل الذي "بنى المصانع وأقام الخزانات والسدود وأحدث ثورة في التعليم وأرسل البعثات وأنشأ أقوى جيش في المنطقة، لم يسمح لنفسه أبداً بالتورط في الديون رغم مروره بفترات عجز في ميزان الدفوعات والتي كان سرعان ما يعقبها فائض وتمكّنت مصر بذلك من تحقيق اكتفاء ذاتي في رأس المال من دون معونات أو قروض أو استثمار أجنبي. كان في السنوات الصعبة لما يحتاج المال لحملاته العسكرية أو مشاريع البناء يقوم بالاستغناء عن كل الواردات غير الضرورية وكان يمتلك الإرادة السياسية ليكون سيّد قراره في معاملاته التجارية ويحسن إدارتها."

وقد بدأ بتكوين أول جيش نظامي في مصر الحديثة، وأسّس أول مدرسة حربية بجنوب مصر في أسوان، مستعيناً في تكوين الجيش، بخبراء أجانب، كما استعان في مشروعاته الاقتصادية والعلمية، بخبراء أوروبيين لبناء دولة عصرية على النسق الأوروبي. وكانت إحدى أهمّ دعائم دولة محمد علي العصرية، سياسته التعليمية والتثقيفية الحديثة، حيث كان يؤمن بأنه لن يستطيع أن ينشئ دولة قويّة على الطراز العالمي المتقدم، بإدارة فعالة مزوّدة بالتقنيات العصرية واقتصاد مزدهر، إلا بإرساء تعليم عصري محلّ التعليم التقليدي.

ولإرساء هذا التعليم العصري، قام محمد علي بإرسال بعثات تعليمية لدراسة العلوم العسكرية، وطرق بناء السفن، والطباعة... إلخ إلى عدة مدن منها الإيطالية والفرنسية، وكان أشهرها، بعثة المفكر والأديب، رفاعة رافع الطهطاوي عام 1826م، والذي كان له أثرٌ كبيرٌ في الحياة الفكرية والتعليمية في مصر. فكانت فترة حكم محمد علي باشا المنتوّرة بذلك من أهمّ أسباب ازدهار مصر وريادتها للوطن العربي والعالم الإسلامي منذ ذلك الوقت، فانطلاقة اقتصاد مصر ونهضتها عسكرياً وتعليمياً وصناعياً وزراعياً وتجارياً، جعل منها دولة ذات ثقل وبدأت أوروبا في تلك الفترة تخاف من امتداد نفوذها إليها، وهو الشيء الذي أربع الاحتلال البريطاني الذي هبّ بقوة لإبعاد "الخطر" الذي يراه في نهضة الأمة العربية. فقرر التحالف ضد مشروع محمد علي فيما عرف بمعاهدة 1840م. وتكالب الاستعماريون الأوروبيون بتواطؤ المحتلين الأتراك وكادوا الدسائس والمؤامرات إلى أن اهترأت الدولة المصرية وبلغت أدنى مستوياتها خلال فترة حكم الملك فاروق حتى سقطت سنة 1952م، بإلغاء الملكية، وإعلان الجمهورية في مصر على يد حركة الضباط الودحيين الأحرار بقيادة الزعيم جمال عبد الناصر ورفاقه الوطنيين من أبناء مصر الغيورين وهو ما سنتحدّث عنه في المثال الثاني لتكالب القوى الاستعمارية ضد أي مشروع نهضة عربية.

العدد رقم (38) صدر في 1 تموز عام 2017 للميلاد

بتحقيقه جزءاً من الأهداف القومية العربية الكبرى، أنجز محمد علي باشا ما لم يتمكن من تحقيقه أحد حتى الآن خلال العصر الحديث، حيث أنه أطلق مشروعاً وحدوياً نهضوياً عسكرياً تحريراً لا مثيل له وفي ما يلي ملخص لبعض إنجازات محمد علي باشا، في مختلف المجالات في مصر وخارجها:

- إنشاء المدارس، وتعليم أبناء البلد المصريين.
- إنشاء المدارس العليا، التي تساوي الجامعات، كمدرسة المهندسين، ومدرسة الطب.
- إعادة توزيع الأرض وتمليك المصريين، بواقع خمسة أفدنة للفلاح، فيما يعرف بأكبر إصلاح زراعي شهده العالم في تاريخه.
- إعادة الاهتمام بالنيل، وترميم مقياس النيل، وحفر القنوات، مثل الإبراهيمية وبحر يوسف.
- زيادة الرقعة الزراعية إلى ملايين الأفدنة، بفضل سياسته الإصلاحية، وإنشاء القناطر الخيرية، التي أحيت الدلتا، بعد أن صارت خراباً.
- إقامة المشاريع الصناعية وتحديث الزراعة المصرية.
- إعادة التقسيم الإداري لمصر، وتقسيم الصعيد إلى مديريات.
- إنشاء الوزارات والدواوين.
- استيراد أنواع غير مألوفة من الزراعات، مثل القطن، وزرعه بمصر والسودان، وهو أحد أعمدة الاقتصاد المصري اليوم، الذي يعرف في كل أنحاء العالم باسم القطن المصري.
- إرسال البعثات العلمية إلى الخارج واشترط التعريب على الطلبة العرب في الخارج والاهتمام بالترجمة، والتي توقفت منذ عهد العباسيين.
- رعاية علماء الدين عموماً والأزهر خصوصاً.
- إدخال الطباعة في الوطن العربي، وإحضار المطبعة، وإنشاء أول جريدة باللغة العربية «الوقائع المصرية» و«الأهرام».
- بناء جيش عصري تمكّن من إخراج العثمانيين وهزيمة الجيش العثماني.
- توحيد مصر والسودان.
- ضمّ بلاد الشام ودخول الجزيرة العربية وتدمير الدرعية عاصمة الوهابيين ونسفها.
-

١٠ سنوات حكم فيها بلاد الشام شكلت يقظة بلاد الشام ١٨٣٠ / ١٨٤٠

تحالفت كلّ القوى الأوروبية على محاربة تجربة محمد علي باشا. فالبريطانيون ومعهم ٥ قوى أوروبية حاربوا محمد علي بزرّاً وبحراً ودغموا الثورات الطائفية والعشائرية ضده لتدمير دولة الوحدة التي بناها محمد علي باشا ودمروا مشروعه وأخرجته هذه القوى من المشرق العربي وأعادت البلاد والمشرق العربي إلى العثمانيين لإعادتها إلى حظيرة التخلف والتبعية للغرب.

بعد أن هُزم محمد علي اشترط الأعداء عليه تفكيك المصانع التي بناها وتفكيك الجيش في حال أراد أن يظل في حكم مصر وأن يعود تحت الخلافة العثمانية يدفع لها الضرائب.

تنصّ المصادر على أن مستوى التطور الصناعي في مصر في عهد محمد علي باشا كان أعلى منه في ألمانيا وفي اليابان في ذلك الوقت (كتاب لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث)

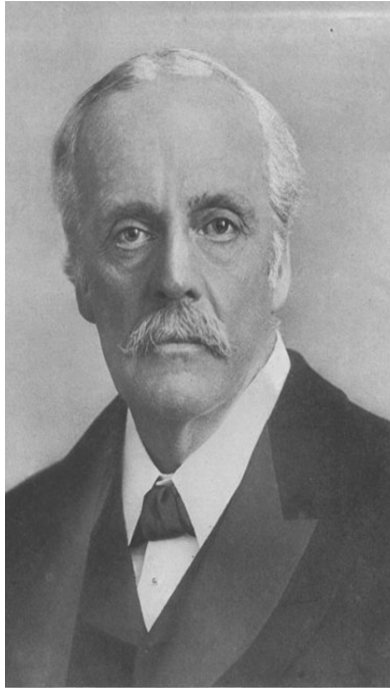
بعد أن أخرج محمد علي بالقوة من قبل الاحتلال الأوروبي من المشرق العربي، قام المدعو «بالمريستون» العدو اللدود لمحمد علي باشا ووزير الخارجية البريطاني وهو أحد أهم الاستراتيجيين البريطانيين بوضع نقطة أساسية تتمحور حولها سياسة بريطانيا إزاء الأمة العربية والوطن العربي وهي:

الوحدة العربية خط أحمر، بالنظر للموقع الاستراتيجي الذي يتمتع به الوطن العربي وباعتباره يمثل وسط العالم ويسيطر على عقدة المواصلات البرية والبحرية والجوية بالإضافة إلى الثروات الباطنية التي بدأ المستعمر يكتشفها تدريجياً وأخفى معلومات اكتشافها عن أصحاب البلاد.

العدد رقم (38) صدر في 1 تموز عام 2017 للميلاد

على أثر التجربة الرائدة لمحمد علي باشا قام "بالمستون" بإرسال رسائل إلى سفرائه في عدة دول في الفترة التي كان محمد علي باشا يحكم فيها المشرق العربي، كما تبين الوثائق التي أفرجت عنها الخارجية البريطانية:

- 1- إلى السفير البريطاني في اسطنبول: إن عودة "الشعب اليهودي" إلى فلسطين تشكل سداً منيعاً في وجه أي مخططات "شريعة" يعدها محمد علي باشا ومن يخلفه. المخططات "الشريعة" هنا هي الوحدة العربية طبعاً.
 - 2- إلى السفير البريطاني في نابولي: إن إقامة حاجز بشري غريب في فلسطين كفيل بمنع وحدة المشرق والمغرب العربي.
- وباعتبار فلسطين نقطة التماس بين الجناح الآسيوي والجناح الأفريقي للأمة العربية، فإن إقامة حاجز بشري غريب وجلب أناس عصيين على الاندماج يهدف لإدامة القطيعة بين المشرق العربي والمغرب العربي.
- على الرغم من أن نهاية محمد علي باشا كانت مؤسفة فإن المشروع النهضوي الذي بناه يظل أحد أهم وأكبر التجارب الوجودية العربية.
- المثال الثاني:



وثيقة وعد بلفور

Foreign Office,
November 2nd, 1917.

Dear Lord Rothschild,

I have much pleasure in conveying to you, on behalf of His Majesty's Government, the following declaration of sympathy with Jewish Zionist aspirations which has been submitted to, and approved by, the Cabinet

"His Majesty's Government view with favour the establishment in Palestine of a national home for the Jewish people, and will use their best endeavours to facilitate the achievement of this object, it being clearly understood that nothing shall be done which may prejudice the civil and religious rights of existing non-Jewish communities in Palestine, or the rights and political status enjoyed by Jews in any other country"

I should be grateful if you would bring this declaration to the knowledge of the Zionist Federation.

Am Jan Balfour



فكما كانت الدول الإمبريالية مناوئة لمشروع نهضة الأمة العربية على يد محمد علي، فإنها كانت تنظر بعين الريبة إلى محاولات مشاريع النهضة والتحرر الحديثة التي انطلقت على إثر الحقبة الاستعمارية في كل من مصر والعراق وبلاد الشام والجزائر وليبيا، وسنذكر في ما يلي مثال مصر التي تمحورت حولها أهم الهجمات الغربية لصدّها عن السير في طريق التحرر والنهضة، والتي شهدت معارك حامية الوطيس انطلقت بما يعرف بالعدوان الثلاثي عام 1956 الذي قامت به كل من فرنسا وبريطانيا والكيان الصهيوني على مصر، وفي ما يلي بعض تفاصيل ذلك الصراع الدبلوماسي ثم العسكري:

- المعارك الدبلوماسية:

على أثر استلامهم السلطة في 1952، انطلق قادة مصر الجدد نحو البحث في إمكانية تنمية البلد وتحقيق استقلاله الاقتصادي، وعلى غرار نهج الإبداع الذي سار عليه محمد علي باشا لتحقيق النهضة كان مشروع بناء السد العالي كأعظم مشروع بناء وتشديد في التاريخ أراد أن ينطلق به عبد الناصر لفك قيود التخلف عن بلاده. وحاولت مصر الحصول على قروض لتنفيذ مشروعها الطموح فقبول طلبها بالصد وسحيت الولايات المتحدة عرض تمويل السد العالي بطريقة مهينة لمصر، ثم تبعها البنك الدولي وبريطانيا التي كانت تتمتع بعائدات مراسيم الملاحة البحرية عبر قناة السويس

العدد رقم (38) صدر في 1 تموز عام 2017 للميلاد

وهي على أرض مصر، وعلى إثر ذلك قرّر جمال عبد الناصر السير باتجاه تحرير شركة قناة السويس وتأميمها لتصبح شركة وطنية مصرية. وفي خطابه الشهير في 26 يوليو 1956 أعلن جمال عبد الناصر من ميدان المنشية بالإسكندرية قرار تأميم شركة قناة السويس، وكان ذلك في تجمع شعبي ضخم وكان عبد الناصر قد أرسل خلال إلقائه الخطاب فريقاً من قوات الكومندوس للاستيلاء والسيطرة على كلّ مرافق القناة الإدارية والفنية والعسكرية.

وعلى إثر ذلك الإعلان قدمت بريطانيا احتجاجاً رفضه جمال عبد الناصر معتبراً التأميم عملاً سيادياً مصرياً. فتمّ الاستنفاذ الغربي واتفقوا على عقد الندوات الدولية في لندن ودعوة مصر للحضور والمشاركة، وكان موضوع الندوات: النظر في كيفية إدارة شركة قناة السويس وعقد اتفاقية دولية لتنظيم إدارة الملاحة البحرية وتأمين حرية مرور السفن عبر البحر الأحمر خارج إرادة مصر وسيادتها... فعمّدت الاجتماعات ولم يحضر عبد الناصر وتغيّبت مصر ولم تشارك بتلك الاجتماعات... وكان مؤتمر لندن لـ "مستخدمي قناة السويس" تمهيداً متخفياً لتنفيذ ضربة عسكرية ضد مصر وتبيين ذلك من توجيه عدد كبير من السفن والناقلات، لتعطيل الملاحة في قناة السويس لإعطاء العدوان العسكري صفة دولية ومن أن جميع قرارات المؤتمر تشير إلى رفض "السيادة المصرية" على القناة وكذلك من محاولة تمديد اتفاق الـ 99 عاماً القائم لإدارة الملاحة في القناة، الذي كان سينتهي عام 1968، وألغاه جمال عبد الناصر. فبعد محاولة تعبئة الرأي العام الدولي ضد مصر، استنفرت بريطانيا القوى الإمبريالية العالمية التي قامت بسحب الخبراء الأجانب من القناة لإثبات أن مصر غير قادرة على إدارة القناة بمفردها، إلا أن مصر أثبتت عكس ذلك واستطاعت تشغيل القناة بإدارة مصرية كان على رأسها مهندس عملية التأميم محمود يونس بمرافقة زميليه عبد الحميد أبو بكر ومحمد عزت عادل. فاجتمع في لندن كل من وزير خارجية فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة، وأصدروا في 2 أغسطس 1956 بياناً يتضمن اتهام الحكومة المصرية بمخالفة "الشريعة الدولية" وتهديد السلام والأمن في منطقة "الشرق الأوسط"، ودعوا إلى إقامة مؤتمر تدعى إليه الدول المنتفعة بالقناة، وهذه الدول هي: مصر، فرنسا، إيطاليا، هولندا، إسبانيا، تركيا، بريطانيا، الاتحاد السوفيتي ودول أخرى من مستخدمي القناة، وهي النمسا، سيلان، الدانمارك، أثيوبيا، ألمانيا الغربية، اليونان، الهند، إندونيسيا، إيران، اليابان، نيوزلندا، النرويج، باكستان، البرتغال، السويد، الولايات المتحدة، وفيما رفضت اليونان المشاركة وافقت الهند على المشاركة وأن تنوب عن مصر بشرط ألا تمس مشاركتها الحقوق والسيادة المصرية، ولا يتخذ المؤتمر أي قرار نهائي إلا بموافقة مصر، ووافقت الحكومة السوفيتية وطالبت بتوجيه الدعوة إلى الدول العربية والدول الاشتراكية واجتمع المؤتمر فيما بين 16 و 23 أغسطس 1956.

أعلنت الحكومة المصرية رفضها الاشتراك في هذا المؤتمر، وتمّ اقتراح إقامة منظمة دولية تابعة للأمم المتحدة لتشرف على إدارة القناة، وعارضت هذا المشروع كل من الهند والاتحاد السوفيتي وإندونيسيا وسيلان، وتمّ عرض المشروع على مصر ففقد عبد الناصر مؤتمراً صحفياً أعلن فيه رفضه لمقترحات مؤتمر لندن، وحاولت بريطانيا التقدم بمشاريع أخرى تمكّنها من السيطرة على تسيير القناة آخرها قرار مجلس الأمن في 13 أكتوبر 1956 الذي تمّ إسقاطه بصوت الاتحاد السوفيتي المتمتع بحق الفيتو. لقد سبب موقف مصر فزع الدول الاستعمارية خشية أن "تشجّع أعمال ناصر كثير الدول مثل إندونيسيا على التمرد".

كما حاولت الولايات المتحدة شراء حقوق إدارة القناة من مصر، حيث يذكر محمد حسنين هيكل في كتابه "الإمبراطورية الأمريكية والغارة على العراق"، أن الجنرال آيزنهاور رئيس الولايات المتحدة الأمريكية حاول بعد تأميم قناة السويس أن يتدخل لـ "حل قضية التأميم"، بعرض عقد بمبلغ 2 مليار دولار نظير الحق في إدارة قناة السويس، وكان الردّ المصري بالرفض التام.

- الصراع العسكري:

أمام فشل السياسة الاستعمارية في تحقيق مآربها عن طريق الضغط الدبلوماسي، قامت كل من بريطانيا وفرنسا والكيان الصهيوني بتدبير مؤامرة العدوان الثلاثي على مصر الذي تمّ إفشاله بفعل المقاومة الشعبية المصرية الشرسة ودعم الأصدقاء في الاتحاد السوفيتي بالتهديد بقصف العواصم الغربية بالأسلحة النووية.

بدأ هجوم الكيان الصهيوني على مصر مفاجئاً يوم 29 أكتوبر 1956، تلاه تقديم كل من بريطانيا وفرنسا إنذاراً لمصر يطالب بوقف القتال بين الطرفين، والقوات الصهيونية ما زالت داخل الأراضي المصرية، ومطالبة مصر والكيان بالانسحاب عشرة كيلومترات عن قناة السويس وقبول احتلال بورسعيد والإسماعيلية والسويس بواسطة بريطانيا وفرنسا، من أجل حماية الملاحة في القناة، واختتم الإنذار بأنه إذا لم يصل الرد خلال 12 ساعة

العدد رقم (38) صدر في 1 تموز عام 2017 للميلاد

فإنّ الدولتين ستمعلان على تنفيذ ذلك، وأعلنت مصر فوراً أنها لا يمكن أن توافق على احتلال إقليم القناة، وأبلغت مجلس الأمن الذي عجز عن إصدار قرار بسبب استخدام بريطانيا وفرنسا حق الفيتو. وفي اليوم التالي للإنداز البريطاني الفرنسي في 31 أكتوبر، بدأت الدولتان غاراتهما الجوية على القاهرة، وعلى منطقتي القناة والإسكندرية. وأصبحت مصر تحارب على جبهتين، جبهة الكيان الصهيوني على الحدود، وجبهة الاستعمار البريطاني الفرنسي في الداخل، الذي يحاول احتلال القناة. فأصدر جمال عبد الناصر الأوامر بسحب جميع القوات المصرية من صحراء سيناء إلى غرب قناة السويس، وشركت وحدات انتحارية لتواجه اليهود في سيناء.. وبدأت عملية غزو مصر من جانب القوات البريطانية والفرنسية من بورسعيد، التي تمّ ضربها بالطائرات والقوات البحرية، ولكن القوات المصرية لم تستسلم وتمكنت مقاومة بورسعيد الضارية من تحريك الأطراف الدولية ضدّ العدوان ونددت الدول العربية بالعدوان وقامت عمليات نسف لأنابيب النفط، لمنع وصوله إلى بريطانيا وفرنسا، واتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً في 2 نوفمبر 1956 بوقف القتال، وافقت عليه مصر، ورفضته كل من بريطانيا وفرنسا والكيان الصهيوني. وفي اليوم التالي وجّه الاتحاد السوفيتي إنذاراً إلى بريطانيا وفرنسا، وأعلن عن تصميمه لمحو العدوان بالقوة، إذا لم تتراجع الدولتان عن موقفهما، وأرسل الزعيم الصيني ماو تسي تونغ في 11 أكتوبر رسالة مساندة للرئيس جمال عبد الناصر والشعب المصري في كفاحه العادل، فأدّى هذا الضغط الدولي مجتمعاً إلى وقف التغلغل الإنجليزي الفرنسي، وقبلهما وقف إطلاق النار ابتداء من 7 نوفمبر، وتلا ذلك انسحاب القوات الفرنسية والإنجليزية من بورسعيد في 22 ديسمبر 1956.

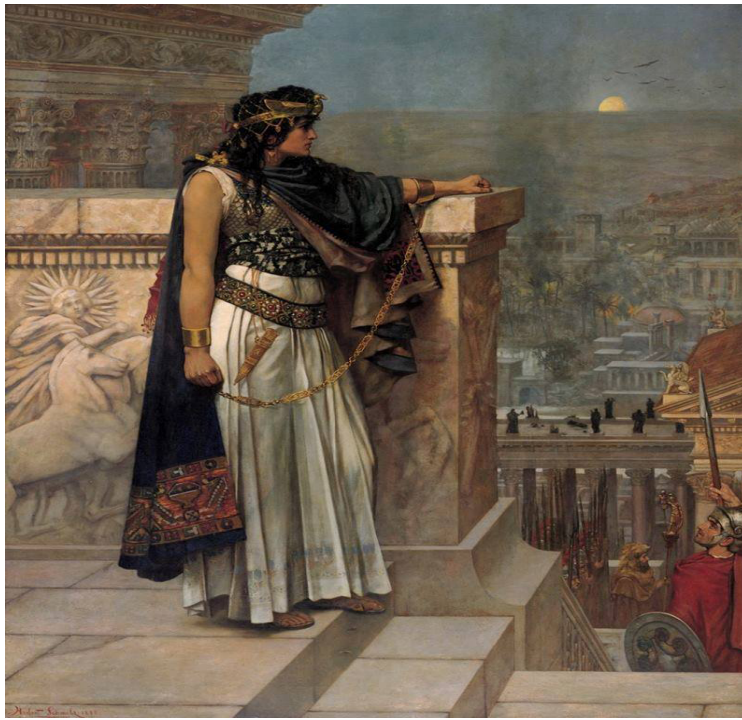
ولا يسعنا في الختام إلا التأكيد على أنّ كل ما يجري على أرض الواقع يؤكد أنّ المؤامرة على الأمة العربية والمشروع القومي العربي هي حقيقة وليست وهمية كما يروج الإمبرياليون من خلال تابعيهم الليبراليين العرب ومن خلال المثقفين السطحيين، فتسليم ليبيا لسلحها وبرنامجها النووي لم يمنعها من الحرق الشامل... وقال جورج بوش "حتى لو تتخى صدام حسين عن السلطة سوف ندخل العراق"، ولا حلّ ولن ينجو أيّ قطر عربي يناي بنفسه عن الأمة العربية وعن فلسطين لأن فلسطين وقع احتلالها ليس من أجل فلسطين لذاتها ولكن كما يقول لنا العمّ "كامبل بنرمان" في وثيقته المذكورة في دائرة المعارف البريطانية: لقد تمّ احتلال فلسطين للقضاء على جناحي الأمة العربية سورية ومصر ثمّ الإجهاز على البقية.. ولذلك فهو واهمّ من يعتقد أنه إذا لم يعاد الكيان الصهيوني سوف ينجو... فلو كان الأمر كذلك لاستقرّ الأمر لمصر بعد اتفاق "السلام" في مخيم داود! وحتى دول الخليج والمملكات التي خرجت من كل عمل مقاوم بل ودخلت في خندق الصهاينة لمحاربة المقاومة... حتى هذه الدول يمنحونها سلاماً مؤقتاً سوف ينتهي فوراً عندما يتمّ التخلص أو تدمير 3 جيوش لا تزال تزعمهم هي جيوش مصر-سورية-الجزائر، وبعدها سوف تنتهي فترة النقاها لال سعود وأتباعهم (وحتى تركية وإيران وروسيا لن يسلموا إذا سقطت هذه الجيوش العربية الثلاثة)، ولذلك فإنه لا خلاص لسورية وأي قطر عربي إلا بالوحدة العربية والمشروع القومي العربي.. فالإمبريالية تحارب سورية بسبب توجّهها القومي العربي وهو الذي مكّنها من الصمود وإذا تخلّت عنه وأدارت ظهرها للقومية العربية سوف يتمكنون منها بسهولة تامة وتصبح مسلوية الإرادة مثل السعودية التي تخفّض سعر نفطها، بضاعتها الأساسية، ضدّ مصلحتها من 150 دولاراً إلى 20 دولاراً للبرميل!... الحلّ هو الوحدة العربية وليس النأي بالنفس... وسورية ليست وحدها.. كل أو جلّ الجماهير العربية المهورة قلوبها مع سورية وأملها الجيش العربي السوري.. اسألوا المصريين: الرخاء كان أيام وسنوات الحرب والشدة والفقر ولم تأتِ كلّ التعاسة لمصر إلا مع "السلام" والتطبيع مع الصهاينة بعد أن تخلّت مصر عن محاربة العدو.

وبناء على ما تقدّم وفي كلّ الحالات فإنّ موقف الدول الغربية الإمبريالية في دعمها اللامحدود واللامشروط والمطلق لدولة ما يسمى بـ"إسرائيل"، لا يمكن فهمه على الإطلاق إلا في سياق "توصية كامبل بنرمان"، كما أنّ عدد اليهود في العالم لا يؤهلهم بأن يشكّلوا قوة ضغط على أيّ دولة من الدول الأوروبية أو الأمريكية وإجبارها على دعمها ومساندتها... فإن كانوا لأنهم أقلية أو ضعفاء أو مضطهدين فهم ليسوا الوحيدين أو الأوائل في هذه الحال لو افترضنا جدلاً صحّة ذلك، وهو غير صحيح بتاتاً، والتاريخ مليء على كل حال بالأمثلة عن الشعوب المضطهدة أو التي أصبحت أقليات مظلومة ولم يتحرّك هذا الضمير الغربي المزعوم لمناصرتها كما يفعل مع المشروع الصهيوني.. ومع ذلك فإننا نعتقد أنه سيفعلها إذا وجد أقلية أو طائفة أخرى تساعده على تفكيك الجسم العربي وتكون حاجزاً ضد إنجاز المشروع القومي العربي.

- "وثيقة كامبل السرية وتفتيت الوطن العربي": مركز الكاشف للمتابعة والدراسات الاستراتيجية
- "وثيقة كامبل السرية وتفتيت الوطن العربي": موقع "الضفة الفلسطينية" الإلكتروني
- وثائق مختارة في تفتيت الوطن العربي: سلسلة دراسات وثائقية - حزب البعث العربي الاشتراكي
- "المستبد العادل.. رائد نهضة مصر": سيد عبد العاطي كاتب صحفي من مصر
- "مؤتمر لندن تمهيدا لمسرح الضربة العسكرية ضد مصر": د. يحيى الشاعر، مؤرخ عسكري شارك بالمقاومة المصرية في مدينة بورسعيد لصد العدوان الثلاثي.
- "قصة الاقتصاد المصري من عهد محمد علي إلى عهد مبارك": جلال أمين عالم اقتصاد وأكاديمي وكاتب مصري
- مصادر مختلفة من الويكيبيديا والمكتبات الافتراضية.
- عمرو أبو سيف مؤسس "موقع الملك فاروق"
- محاضرات للدكتور إبراهيم علوش من كتاب تاريخ فلسطين الحديث للمؤرخ العربي عبد الوهاب الكيالي
- الأستاذ محمد حسين هيكل - المعروف بدقة مصادره - أورد في كتابه «المفاوضات السرية وإسرائيل» التوصية النهائية للوثيقة تحت عنوان: «وصية بنرمان».

شخصية العدد: زنوبيا، الحسنة التي أرعبت عرش روما

نسرین الصغير



عُيِّن أذينة، الذي كان رئيساً للأعيان في تدمر، حاكماً لتدمر وما حولها من قبل الإمبراطور فاليريانوس، في العام الثاني والستين بعد المائتين من الميلاد. وكانت زنوبيا قد تزوجت من أذينة قبل ذلك التاريخ، وانتظمت على حضور جلسات مجلس الشيوخ بصحبة زوجها، وكان لتلك الجلسات دورٌ في تكوين شخصيتها. وبعد أن تولى أذينة الملك بفترة اختطفته يد الغدر، وبعد أن نالت زنوبيا من غريمه تولت العرش نيابةً عن ولدها ”وهب اللات“، وقادت الحكم والحروب بالنيابة والوصاية عنه.

اهتمت الملكة زنوبيا بإعادة الإعمار والبناء، فمعظم الآثار الشهيرة الموجودة اليوم في مدينة تدمر كانت قد بنيت في عهد الملكة زنوبيا، والتي حاول اليوم أبناء وأحفاد هرتزل وأورليانوس تدميرها لطمس تاريخ وحضارة هذه المدينة العربية العريقة خدمة للمشروع الصهيوني فيما يسمى بـ”الربيع العربي“، لكن زنوبيا - كما تدمر - وكعادتها كانت ولا تزال عصية عليهم، ففي عهد زنوبيا أثبتت كم كانت عصية عليهم بحكمتها ودهائها، واليوم هي عصية عليهم بسواعد أحفادها أبطال الجيش العربي السوري. كان

طموح زنوبيا غير مقتصر على مملكتها ”مملكة تدمر“ بل كان طموحها أن تسقط روما ذاتها.

ولدت زنوبيا في تدمر ودرست تاريخ الإغريق والرومان في الإسكندرية، وكانت قوتها في الحياة كيليوبترا، أنجبت أبناءها ”وهب اللات، تيم الله وحيران“، ولم تشغلها أمور الحكم عن تعليم وتنشئة أبنائها. علمتهم لغة أجدانهم أي لغة روما، وأدبها وتاريخها حتى يكونوا على دراية ومعرفة بعدوهم الأول، فزنوبيا لم تكن مجرد ملكة ورثت الحكم عن زوجها، ففوة شخصيتها وذكائها جعلها تحدد وتعرف أهدافها حق المعرفة، وجعلها تعرف من عدوها وإلى أين ستصل بقوة جيشها، وكل ذلك جعل امبراطور روما يعترف بوهب اللات ملكاً وزنوبيا وصيةً عليه، ويذكر أن زنوبيا قد تولت الملك وهي في ريعان شبابها.

قوّت حكمها في تدمر والبادية، وأقامت ثغوراً على ضفاف الفرات وأشهرها ”حلبية وزليبية“، وما زالت آثار تلك الثغور قائمة حتى يومنا هذا، وأطبقت حكمها على آسيا الصغرى ومصر وكانت غايتها ليس الحفاظ على العرش أو إرضاء غرورها وتحقيق مصالحها الشخصية، بل كانت تطمح لتوحيد الوطن العربي وتحريره من الهيمنة الرومانية، وكما نشهد اليوم في سورية فإن الهدف الأساسي يظل الحفاظ على سيادة سورية ووحدتها.

أشرفت زنوبيا بذاتها على البناء والتوسعة التي ما زالت آثارها شاخصة حتى اليوم على الشاطئ السوري وفي الإسكندرية وبلعبك وبجوار دمشق. كانت تنافس إمبراطور روما بألقها وفخرها، فعربتها كانت مرصعة بالذهب والألماس، ومع ذلك وخلال مراقبتها ومتابعتها لأعمال البناء والإعمار، ومشاركتها في الحروب، ما كانت ترتدي إلا لبس الرجال وتنتقل بين المواقع على فرسها، فأرعبت الرجال وعُرفت بالعين التي لا تنام ولا تغفل.

العدد رقم (38) صدر في 1 تموز عام 2017 للميلاد

لم ينسبها حكمها وهدفها وانجازاتها الحضارية في مملكتها هدفها الرئيسي، وهو توسعة حكمها والوصول إلى مصر، لا بل والوصول إلى روما ذاتها، فقد وصلت جيوشها إلى بيزنطة في العصر الروماني وقتلت هيراكليون قائد القصر. ثم فتحت الإسكندرية التي نشأت وتعلمت فيها، وكان ذلك من الأسباب التي جعلت روما قلقاً من المرأة الظافرة الثائرة على احتلالهم، إلى أن اعتلى الحكم في روما الإمبراطور "أورليانوس" عام 270 م، وكان قاسياً بطاشاً، لكنه كان أيضاً ذكياً، فبدأ عهده بالاعتراف بزنوبيا وبنفوذها على الإسكندرية وكان ليناً معها في البداية، وبعد عام واحد فقط، انقلب عليها ونقض اعترافه بها وبحكمها على الإسكندرية واسترجعها منها.

استطاع أورليانوس في لحظة ضعف لزنوبيا بعد وفاة ابنها وهب اللات، أن يتابع انتصاراته في آسيا حتى وصل الخطر لعقر دارها، فقام بتهديد مملكة زنوبيا "تدمر"، وعرف حق المعرفة أن خطر زنوبيا يهدد عرشه في روما، فهي المرأة القوية الصلبة التي يمكن أن تمر بلحظة ضعف، لكنه كان واثقاً من قدرتها على تجاوز أي محنة وأي عقبة تواجهها لتكمل مشروعاتها في تحرير مصر وآسيا الصغرى إلى أن تصل لهدفها الكبير وهو تأسيس دولة عربية مركزية وإسقاط عرش روما الذي سعت حثيثاً للوصول إليه. وقبل وصوله لأنطاكية كانت جيوش زنوبيا تواجهه وتجابه زحفه لتدمر، لكن الحرب كانت سجلاً بينهما، إلا أن خصومها القابعيين في حمص خذلوا جيشها وخذلوا وطنهم، مما اضطرها للعودة لتدمر لحماية نفسها، وعندها تمكن أورليانوس من محاصرتها في عاصمتها.

لم تستسلم الملكة بل واجهت الجيش الروماني وألحقت به الخسائر الفادحة بالجنود والعتاد وأنهكتها في معارك طاحنة، ولكن وبعد أن أحكم أورليانوس وجيشه محاصرتها، ومن ثم هزيمتها في آخر المعارك، عرض أورليانوس عليها رفع راية الاستسلام، وتسليم المملكة إليه، على أن تخرج سالمة منها، لكن زنوبيا رفضت وأعدت تنظيم جيشها، ووضعت خطة لهزيمة جيش الرومان، فالتقى الجيشان مرة ثانية قرب نهر الفرات، ودارت بينهما معركة ضارية، سجلت فيها زنوبيا أروع مواقف الشجاعة والدفاع عن الأرض.

وهنا كأي رئيس أو خبير عسكري يعرف خطر عدوه، لكنه يعرف أيضاً بوجود حليف يوحده معه العداء لخصم واحد، لجأت زنوبيا للفرس واستتجبت بهم، فتخفت لتذهب لـ "هرمز" ملك الفرس، وقبل أن تعبر الفرات كان الجيش الروماني يرصدها، فقبض عليها واصطحبها إلى أورليانوس الذي عاد بها مكبله بقيود من ذهب إلى روما، ولم يقتلها، بل قام بقتل مجموعة من قادة تدمر ومستشاريها، بعد أن أجريت لهم محاكمة عاجلة في مدينة حمص. وتوفيت زنوبيا في روما عام 274م في ظروف غامضة، فالبعض يقول أنها ماتت بعد تناولها لعشبة سامة وهي أسيرة لدى الرومان.

لم تكن زنوبيا مرحلة عابرة أو ملكة تطمح في ملك لرقعة أرض محددة أو لمجموعة من الناس، بل نهضت بمملكتها نهضة شاملة خلال فترة حكمها وكانت صاحبة قوة عسكرية خارقة في ذلك الوقت، وكانت شجاعة صلبة محبوبة من جيشها وشعبها، مثقفة تتحدث عن علم ومعرفة فتحوّلت لقدوة لكثيرين، ككليوبيترا التي كانت قدوتها، كانت ملكة الشرق زنوبيا خطيبة مفوهة، تتحدث اللغة الآرامية باللهجة التدمرية، كما وتتحدث القبطية واليونانية، وكانت مولعةً بالتاريخ والجغرافيا التي كانت تعرف بهما أهمية توسعة حكمها وسيطرتها، وبذكاؤها أصبحت مقربة جداً حتى من العلماء والفلاسفة -أمثال لونجين- الذين عاونوها بإسداء النصيحة في أمور حكمها.

وذكر أحد المؤرخين في عصر أورليانوس، أن الإمبراطور عندما جرح في حربه مع زنوبيا قال إن الشعب الروماني يتحدث بسخرية عن حرب أشنها ضد امرأة، ولكنه لا يعرف مدى قوة شخصية هذه المرأة ومدى بسالتها.

أطلق عليها لقب "الملكة المحاربة". أصدرت الملكة زنوبيا عملةً خاصة بتدمر وصكت النقود في إنطاكية، وطبعت صورة ابنها وهب اللات على أحد جهي العملة، وعلى الوجه الثاني صورة الإمبراطور أورليانوس، مما يميز النقود السورية التدمرية عن نقود روما.

وبعد كل هذا التاريخ الحافل للملكة الفتاة، لا تزال روما تذكرها وتعلم أن أحد أهم هزائمها جاء على يد امرأة عربية، وبعد مئات بل آلاف السنين بقيت تدمر تنجب النساء الظافرات الباسلات أمثال زنوبيا اللواتي يتصدّين اليوم للهجمة الرومانية بالوجه الجديد، الصهيوني الأمريكي، على تدمر وسورية والوطن العربي، وأحفاد زنوبيا اليوم يسطرون معارك الشرف والعزة، للدفاع عن مملكة زنوبيا والأرض العربية السورية، فما هم يكتبون التاريخ من جديد، لكن بنصر محقق سيدونه التاريخ كما دون انتصارات وفتوحات الملكة المحاربة.

الصفحة الثقافية: أوسكار للجماعات الإرهابية المسلحة معاوية موسى



الجوائز شيء لا بد من تقديمه ما دامت تساعد على الترويج وصناعة الفن والسينما، هذا من حيث المبدأ، أو من حيث تناول الموضوع من الزاوية الرومانسية إن صح التعبير، أو لنقل من الزاوية البريئة له، ولكن ما هو معيار أو المعايير التي تقدّم على أساسها تلك الجوائز، ومن هو الذي يقدّمها، وما هو الأساس الذي يتم التقييم بناءً عليه، هل هو فني، تقني، أيديولوجي، أم سياسي؟ نلاحظ بكل سهولة أنّ القوى العظمى الوحيدة التي تقوم بإعطاء تلك الجوائز هي الغرب وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، أي تلك القوى ذاتها التي تسعى لترويج أفكارها ولغتها وأنماط عيشها، عدا عن سيطرتها واستعمارها المباشر وغير المباشر للوطن العربي ودول العالم الثالث في آسيا وإفريقيا وغيرها.

ولعلّ من أبرز تلك الجوائز، هي جائزة الأوسكار، وهي بحسب تعريف موسوعة ويكيبيديا ومصادر متنوعة على النت، تلك الجائزة التي تقدّمها سنوياً أكاديمية فنون وعلوم الصور المتحركة، وهي من أرفع الجوائز السينمائية في الولايات المتحدة، ويعدّها البعض أهم جائزة سينمائية في العالم، والجهة المانحة للجائزة هي أكاديمية فنون وعلوم الصور المتحركة كما ذكرت، والتي تعدّ أكاديمية فخريّة وليست تعليمية، وقد تأسست في 11/5/1927 في ولاية كاليفورنيا، وتضم أكثر من 6000 عضو متخصص في

الفنون السينمائية، ويُقام حفل توزيع الجوائز في 28 شباط من كل عام، والفيلم المرشح للجائزة يجب أن يُعرض في صالات السينما لمدة عام قبل موعد انطلاق الجائزة، ويجب أن لا يقل طول الفيلم عن 40 دقيقة وحجمه ما بين 35 ملم و 70 ملم، أما الفئات التي تمنح عليها الجائزة فهي كالتالي:

أفضل ممثل، أفضل ممثلة، أفضل ممثل مساعد، أفضل ممثلة مساعدة، أفضل فيلم، أفضل فيلم رسوم متحركة، أفضل تصوير، أفضل مخرج، أفضل تصميم أزياء، أفضل وثائقي، أفضل مونتاج، أفضل فيلم بلغة أجنبية، أفضل فيلم حي قصير، أفضل ماكياج وتصنيف شعر، أفضل موسيقى تصويرية، أفضل أغنية أصلية، أفضل تصميم إنتاج، أفضل مونتاج أصوات، أفضل خلط أصوات، أفضل تأثيرات بصرية، أفضل نص سينمائي مقتبس، أفضل نص سينمائي أصلي.

بالعودة إلى المقدمة التي يستطيع القارئ من خلالها وبسهولة مطلقة أن يصل إلى النتيجة المتوقعة من منح أفلام محددة جوائز عالمية، وهي أن ثمة أجندة سياسية مستترة، وأحياناً فاجرة، فيلم "الخوذ البيضاء" نموذجاً، وراء إعطاء مثل تلك الأفلام جوائز كبرى وشهيرة بحجم الأوسكار، ومن الأمثلة أيضاً حصول الفيلم الجزائري "سنوات الجمر" على الجائزة الكبرى في مهرجان "كان" السينمائي في فرنسا، في فترة كانت الجزائر تمر فيها بلحظة صراع مع الاستعمار الفرنسي، وهناك جائزة أوسكار أخرى مُنحت للمخرج الإيراني أصغر فرهادي عن فيلمه "انفصال نادر وسيمين"، والتي كان ثمنها السياسي سريعاً بالمناسبة فبعد أسبوعين فقط من تاريخ منحه الجائزة قامت صحيفة "هآرتس" الصهيونية بنشر حوار طويل معه على صفحاتها، يتحدث فيه عن تجربته ولبيرايته ومعارضته للنظام الإيراني الذي يدخل في معركة كسر عظم مع القوى الإمبريالية والكيان الصهيوني، وهكذا نلاحظ كيف انتهى فرهادي بحضن "إسرائيل" كثمن لحصوله على الأوسكار، والتي تمنح الشهرة والشرعية الفنية لصاحبها، وعرض الفيلم بأشهر الصالات ودور السينما، مقابل الاعتراف بالعدو ومحاولة أنسنته وتمير جرائمه بحق شعوب المنطقة.

العدد رقم (38) صدر في 1 تموز عام 2017 للميلاد

وهناك عشرات الأفلام التي أنتجت في أقطار عربية بذهنية الغرب بقصد الحصول على جوائز، عدا عن تلك التي تحصل أصلاً على تمويل غربي في الإنتاج والتحضير كأفلام المخرجة اللبنانية نادين لبكي التي حصلت على تمويل فرنسي، وفيلم "الخوذ البيضاء" الذي مولته اليو إس إيد (الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية)، والثمن دائماً من وراء التمويل هو أجندة سياسية على رأسها التطبيع مع العدو الصهيوني وإضفاء الشرعية على وجوده وأسننته، وتحقيق مصالحه في المنطقة لا سيما في القضية السورية والتي على أساسها تم تمويل الفيلم الأخير أصلاً، والذي حصل على أول أوسكار للجماعات الإرهابية المسلحة.

"الخوذ البيضاء" هو فيلم عن فرق الإنقاذ المؤلفة من متطوعين يخاطرون بحياتهم لإنقاذ "ضحايا" القصف في سورية بحسب منتجيه ومموليه، حيث يروي قصة مجموعة تسمى نفسها "الخوذ البيضاء" تزعم أنها تساعد الناس في مناطق الحرب في سورية، أسسها ضابط استخبارات بريطاني عام 2014، اسمه جيمس لو محيرر، كان طالباً في أكاديمية ساند هيرست العسكرية الملكية، وعمل في مكتب "الممثل السامي للأمم المتحدة في البوسنة" قبل أن يصبح منسّقاً لاستخبارات لحلف شمال الأطلسي في كوسوفو.

وقد ترك الضابط المذكور الجيش البريطاني في عام 2000 وعمل نائباً لرئيس الوحدة الاستشارية حول "الأمن والعدالة"، والممثل الخاص للهيئة السياسية الأمنية للأمين العام في بعثة الأمم المتحدة في كوسوفو. ومن ثم انتقل إلى القدس، ثم بغداد، ومن بعدها إلى دبي حيث عمل مع مجموعة "أوليف غروب"، ولاحقاً إلى لبنان خلال حرب 2006. مدة الفيلم 40 دقيقة، وقام بتصويره شاب يدعى خالد الخطيب يبلغ من العمر 21 عاماً فقط.

اللافت في هؤلاء أنهم يقومون نهاراً بـ"عملهم الإنساني"، ومساء يحملون السلاح ويقاثلون في صفوف الجماعات الإرهابية التي تحمل نفس فكر القاعدة وبعضها ينتمي ويتفرع عنها، أهمها تنظيم جبهة "النصرة" و"جيش الفتح" و"نور الدين زنكي" وجماعة "فاستقم كما أمرت" الناشطة في ريف حلب.

"الخوذ البيضاء" التي ترفع شعار "نحن من الشعب وللشعب"، تؤكد أنّ المتطوعين فيها يعملون "بحيادية وإنسانية ومن دون تمييز"، وأنهم "لا يدينون بالولاء لأي حزب أو جماعة سياسية". وهذا ما ترويه مجلة "نيوزويك" الأميركية، التي شددت في مقال، على أن المنظمة "تمتاز بعملها غير الطائفي والمحايد، وأفرادها غير مسلحين".

لكن نظرة من ناحية مختلفة على عشرات الصور ومقاطع الفيديو، تشير إلى عكس ذلك، وتظهر أن "الخوذ البيضاء" يعملون مباشرة مع تنظيمات مسلحة بينها جبهة "النصرة" و"جيش الفتح" وجماعات أخرى كما سبق الذكر، ويشاركون في الحملة الدعائية ضد الحكومة السورية عبر المشاركة في فبركة صور وأخبار بهدف التأثير بالرأي العام.

في أحد مقاطع الفيديو، يظهر الحاج أبو أحمد، المتطوع في "الدفاع المدني السوري"، وهو يقول إن "جثث الشبيحة"، في إشارة إلى جنود الجيش العربي السوري، "سُترمى في المزابل". ثم يقول: "حلت علينا بشائر النصر في جسر الشغور على أيدي المجاهدين قواهم الله"، مضيفاً: "عقبال آخر معاقل النظام في اللاذقية ودمشق".

وفي مقطع آخر، تظهر مجموعة من أفراد "الخوذ البيضاء" وهم يحتفلون مع مسلحين من "جبهة النصرة"، فضلاً عن صور لمتطوعين في المنظمة يرفعون علامة النصر على جثث عسكريين في الجيش العربي السوري قتلتهم "النصرة"، وعلى سبيل المثال، انتشرت صور لمتطوع آخر يدعى معاوية حسن آغا من إدلب، وهو يقاتل مع "النصرة" مرتدياً سترة "الخوذ البيضاء".

تاريخ مؤسس المنظمة ومواقف مديرها السياسية، بالإضافة إلى مصادر تمويلها وداعميها، تفتح الباب للشكّ بحياديتها. ومن المهم جداً فضح هذه المنظمة التي ما انفكت تنشر التضليل وقتل الناس ومن ثم إسعافهم لا سيما في مجزرة خان شيخون قبل عدة شهور التي كانت ذريعة لعدوان أمريكي استهدف مطار الشعيرات في ريف حمص.

المصادر:

- موسوعة ويكيبيديا.

- جهاد "الخوذ البيضاء" تحت سقف النصرة والـUSAID/رنا حربي، جريدة "الأخبار" اللبنانية العدد 2876 تاريخ 30 نيسان 2016.

”نقد الردة“ كمتطلب إجباري طالب جميل

نقد الردة عن المشروع القومي مقاربة جذرية للوحدة والعروبة والنهضة



إبراهيم علوش إبراهيم حرشاي أسامة الصحراوي ناجي علوش
بشار شحاتة نسور شبيطة السيد شبل واصل البخور
مسالح بدروشي معاوية موسى توفيق شومر عيسى بايسل
جميل ناجي سعيد السارودي



في عصر أصبحت فيه التكتلات والأمم المستندة إلى قوميات مختلفة صاحبة النفوذ والسيادة في هذا العالم، ووسط عالم لا يؤمن إلا بمنطق الاتحاد والقوة، وبعد أن أثبتت الواقع أن حلول التجزئة والفطرية والكيانات الصغيرة لا تؤدي إلا من مزيد من الانحطاط والذل وفقدان السيادة، وبعد أن ضاق الأفق وتشتتت البوصلة وخيم الظلام وطال مكوثنا في القاع ووصلنا نحن كعرب إلى طرق مسدودة، وبعد أن أصبح جلد الذات معزوفة وطنية وقومية نتغنى بها صباح مساء، واستيحت عواصمنا وتُكل بكل ما تبقى من معالم حضارتنا، وشوّه تاريخنا وتحول الدين الإسلامي إلى مطية يركبها تجار الدين وأصحاب المشاريع المدسوسة لتمزيق ما تبقى لدينا من مظاهر الصمود والوحدة. وبعد عقود من الاشتباكات بين معتنقي الفكر القومي بكافة ألوانه من بعثيين وناصريين وقوميين اجتماعيين وتنظيمات فلسطينية وغيرها ومحاولة كل طرف تشويه الأطراف الأخرى وتخوينها بشكل أو بآخر، وفي ظل الحرب التي تقودها القوى الاستعمارية والصهيونية عبر عملاتها من الأنظمة والحركات العربية الرجعية ضد الفكر القومي العربي ومحاولات وأده وتصفيته وتكفيره وجعله فكراً مخالفاً لتقاليد وثقافة العصر الرأسمالية الاستهلاكية وخارج سياق الواقع، وبعد أن ساعدت بعض الأنظمة العربية الولايات المتحدة والقوى المعادية لنا كعرب على احتلال وتدمير وحصار أقطار عربية وعلى التخلص من كثير من المناضلين والمقاومين للمشروع الصهيوني. وفي الوقت الذي تزداد فيه حملة الكفر بالعروبة والردّة عنها خصوصاً بعد داحس (كامب ديفيد، أوسلو ووادي عربة) وغيره (الربيع العربي) ذات نكهة صهيونية، وبعد ما أفرزته ثقافة الإعلام المأجور من خراب وتلويث لمعنى ومضمون العروبة، تتصدى ”لائحة القومي العربي“ من جديد وعبر منبر فكري ثقافي تنويري هو مجلة (طلقة تنوير)، ومن خلال مجموعة كتب حملوا على عاتقهم مهمة تنقية فكرة القومية من أي شوائب شابتها في العقود الأخيرة ومهمة تأطيرها في إطار عربي عصري حقيقي ينسجم مع مقتضيات ومتطلبات هذا العصر ويقدم الحلول الجذرية لأزمات ومشاكل الأمة، من خلال إصدار كتاب بعنوان (نقد الردة عن المشروع القومي - مقاربة جذرية للوحدة والعروبة والنهضة) والذي هو عبارة عن سلسلة مقالات مختارة تم نشرها في مجلة طلقة تنوير.

نقد الردة) ليس كتاباً للمتعة أو التسلية بقدر ما هو استثمار بالوعي والفكر، ومادة تحمل في طياتها خارطة طريق للأجيال القادمة وتضع حداً لنزيف الضياع والتخلف الذي أصاب شباب الأمة وقادهم إلى فقدان بوصلة الانتماء والتضحية، فهو يقدم رؤية عصرية ضمن منهاج نظري متماسك ويفند كافة التجارب القومية السابقة ومحاولات بعض الأنظمة بناء مشروع قومي بشكل أو بآخر بحسناتها وسيئاتها ويتناول نقاط القوة والضعف في كل تجربة، لأن المهارة والدقة في تحديد أسباب العلة يقطع شوطاً كبيراً في الطريق نحو حلها.

لذلك وجب نقد الردة عن المشروع القومي لأنّ العروبة ليست كُفراً بل هي هوية ثقافية جامعة لمجتمع يتحدث بلسان واحد ومتعدد المذاهب والأديان ويرتكز على حضارة لها جذورها الضاربة في عمق التاريخ.

العدد رقم (38) صدر في 1 تموز عام 2017 للميلاد

(نقد الردة) يصب وبشكل مباشر باتجاه تحقيق أهداف المشروع القومي الكبير المتمثلة في الوحدة، النهضة والتحرير، فهو جاء ليؤكد على أن هناك أرضية صلبة وقوية تستند إلى عَرَاقَة تاريخية وتصلح لتحقيق مشروع الوحدة العربية المتحققة أصلاً في الذات القومية وإن لم تكن موجودة على أرض الواقع، وعلى أن النضال لوحدة الأمة هو عمل تقدمي دائماً حتى ولو كانت الحركة القومية رجعية أحياناً، فلا تحتاج الفُطرية والتجزئة إلى من يثبت فشلها في بناء أمة قوية متماسكة قادرة على مواجهة التحديات، فالتجربة أثبتت ذلك بشكل واضح للعيان.

وعلى خُطى ثلثة من رواد الفكر القومي والعقول القومية الواعية في وطننا العربي مثل (ساطع الحصري، ياسين الحافظ، ناجي علوش، نديم البيطار، محمد عزة دروزة) وغيرهم كانت المقالات المنشورة في الكتاب تعبر عن الحاجة الملحة لاستنهاض الهمم وإعادة إحياء المشروع الوحدوي باعتباره الأرضية الأساسية لأي نهضة أو تنمية مستقبلية.

ما يميز كتاب (نقد الردة) أنه يمتلك إجابة واحدة لتساؤلات كثيرة حول أسباب الانحطاط واستقواء كافة القوى الاستعمارية علينا كعرب وضياع أوطاننا واستسهال امتهان وهدر كرامتنا ومحاولات إخراجنا من التاريخ وإلغاء حضارتنا ومصادرة إنجازاتنا وتآكل لغتنا العربية وتشويه الدين الإسلامي الأوهي الوحدة التي باتت ضرورة ملحة في مواجهة كل التحديات على أن تكون دولة وحدة مركزية لأمة واحدة تشمل كافة الأراضي العربية والأراضي المحتلة وتسقط كل الحدود السياسية والجمركية بين كافة الأقطار العربية.

(نقد الردة) لم يغفل عن التأكيد على أن المسيحيين العرب هم ملح العروبة وجزء من تاريخ وتراث وحضارة هذه الأمة، وفي كافة مراحل النهضة التي مرت على الأمة كان لهم دور أساسي وحيوي في تلك النهضة بصفتهم أبناء أصليين لهذه الأرض، كما لم يغفل عن الردّ على الحركات التي تسعى لسلب البربر عن جسد الأمة والتي تشكك بارتباطهم بالعروبة.

أما الحديث عن علاقة العروبة بالإسلام فكان له حيز مهم في (نقد الردة) من خلال الرد على أصحاب المشاريع المعادية للأمة الذين يحاولون إفراغ الإسلام من محتواه العربي وذلك عبر التأكيد بأن الإسلام كرسالة سماوية دين محتواه عربي ولسانه عربي وأن العروبة حاضرة في الإسلام نصّاً وروحاً؛ فهي هوية الرسول محمد عليه السلام، وأنه لم يكن هناك أصلاً أي تناقض أو صراع بين العروبة والإسلام، وبالقدر الذي أعطى الإسلام للعروبة أعطت العروبة للإسلام مما يثبت أن العروبة هوية جامعة تجمع المسلم والمسيحي والسني والشيعي وتصبح قاسماً مشتركاً بين كل العرب بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية والطائفية والمذهبية.

ولأنّ اللغة العربية هي العمود الفقري للقومية العربية ولها الدور الأكبر في الحفاظ على كيان الأمة، كان لا بد من التعرّيج على مكانة اللغة العربية في البعد القومي، فكانت هنالك عدة مقالات بهذا الخصوص تحمل في طياتها دعوة واضحة للحفاظ والدفاع عن اللغة العربية خاصة بعد أن حاول الاستعمار وعبر مراحل تاريخية مختلفة طمسها ومنع التحدّث بها لأن الأمن اللغوي هو جزء أساسي من الأمن القومي، وحماية الأمة من التفكك والانحيار يبدأ عبر حماية الموقع الوحدوي للغة القومية.

(نقد الردة) مادة فكرية قيمة تعيد إحياء فكرة الوحدة العربية وتعزز الإيمان لدينا كعرب بأن أمامنا فرصة تاريخية لاستعادة زمام المبادرة والعودة إلى مقدمة الأمم واستعادة ما فقدناه في العقود الماضية وإعادة البناء والإنتاج ضمن مشروع نهضوي كبير يعيدنا إلى الطريق الصحيح ويحررنا من قيود التخلف والتبعية، وعليه فلا بد أن تكون مطلباً إجبارياً تستنير به الأجيال القادمة لتكون لبنة أساسية في بناء وعي قومي يضمن لهم مستقبل أفضل.

قصيدة العدد: "المواكب" لجبران خليل جبران

إعداد إيمن الرمحي

جو النص (المناسبة):



هاجر عدد من أبناء الوطن العربي خاصة من لبنان إلى الأمريكتين، طلباً للعيش، وهناك شاهدوا عالماً يختلف كل الاختلاف عن عالمهم في المشرق، عالماً مادياً تحكمت فيه الآلة، وعكّر صفو الحياة فيه هدير الآلات، وضجيج السكان، وفساد هواء المدن... صدمتهم هذه الحياة فحنوا إلى قرى الشرق الوداعة، وهوائه النقي، وروحانيته الخاشعة، وعاداته وتقاليده القائمة على الحب والبساطة والتسامح. وقصيدة جبران (المواكب) هي الصدى المعبر عن تلك التجربة والمعاناة التي عاشها المهاجر العربي في الأمريكتين.

القصيدة من شعر جبران الرمزي الفلسفي، وقد جاءت كاملة في ديوانه "المواكب" على شكل حوار خفي أجراه بين شيخ وفتى، الشيخ خرج من المدينة يتوكأ على عصاه، ويسير في حُطىّ متناقلة، وقد تجعد وجهه وبدا عليه التشاؤم، والفتى خرج من الغاب غض الإهاب، جميل الطلعة، أكسبته الطبيعة قوةً وحيويةً، فالتقيا في سفح جبل، ودار بينهما موضوع القصيدة.

ومقاطع القصيدة في أبياتها المختارة هنا تمثل حياة المدينة تارة وحياة الغاب تارة أخرى. وكذلك بنيت مقاطع القصيدة على بحرين بالتناوب، يُمثل كل بحرٍ منهما أحد الشخصين المتحاورين (الشيخ والفتى)، علماً أنّ الأجزاء التي غنتها السيدة فيروز من هذه القصيدة (أعطني الناي وغنّ) هي من بحر مجزوء الرمل، وهي المقاطع التي يتحدث بها الفتى بهي الطلعة عن الطبيعة وجمالها.

عروض القصيدة:

اختار الشاعر نوعين من البحور في هذه القصيدة (بحر البسيط ومجزوء الرمل)، أي أن جبران نوع في وزن قصيدته هذه، وقد كانت طريقته هذه فريدة من نوعها، لا بل كان جبران سابقاً بابتداعه هذا بقصيدة المواكب، ونوضح ذلك بهذين البيتين المختارين من هذه القصيدة:

1. الخير في الناس مصنوعٌ إذا جُبروا
والشرُّ في الناس لا يفنى وإن قبروا
(البحر البسيط)

2. ليس في الغابات راع
لا ولا فيها القطيع
(بحر مجزوء الرمل)

اخترنا من قصيدة المواقب الأبيات التالية:

والشرُّ في الناس لا يفنى وإن فُبروا
أصابع الدهر يوماً ثم تنكسرُ
ولا تقولنَّ ذاك السيد الوقرُ
صوت الرعاة ومن لم يمشِ يندثر

لا، ولا فيها القطيعُ
لا يُجاريه الربيعُ
للذي يبأى الخضوعُ
سائراً سار الجميعُ
فألغنا يرعى العقولُ
من مجيدٍ وذليلُ

أحلام من بمراد النفس يَأتمرُ
فإن تولى فبالأفراح يستترُ
فإن أزيل تولى حجبهُ الكدرُ
جاورت ظلَّ الذي حارت به الفكرُ

لا، ولا فيها الهمومُ
لم تجيء معه السمومُ
ظلُّ وهم لا يدومُ
من ثناياها النجومُ
فألغنا يمحو المحنُ
بعد أن يفنى الزمنُ

وللأثيريِّ فهو البدءُ والظفرُ
يبقى ومن نام كل الليل يندثرُ
يعانق التراب حتى تخمد الزهرُ
يجتازه وأخو الأثقال ينحدرُ

لا ولا فيها القبور
لم يمتَّ معه السرورُ
ينثني طيِّ الصدورُ
كالذي عاش الدهورُ
فألغنا سرُّ الخلود
بعد أن يفنى الوجود

الخير في الناس مصنوعٌ إذا جُبروا
وأكثر الناس آلاتٌ تحركها
فلا تقولنَّ هذا عالمٌ علمُ
فأفضل الناس فُطعانٌ يسير بها

ليس في الغابات راعٍ
فالشَّتا يمشي ولكنَّ
خُلِقَ الناس عبيداً
فإذا ما هبَّ يوماً
أعطني النايَ وغنِّ
وأنينُ الناي أبقى

وما الحياةُ سوى نومٍ تُراوده
والسرُّ في النفس حزن النفس يستره
والسرُّ في العيش رغد العيش يحجبه
فإن ترفعت عن رغدٍ وعن كدرٍ

ليس في الغابات حزنُ
فإذا هبَّ نسيماً
ليس حزن النفس إلا
وغيوم النفس تبدو
أعطني النايَ وغنِّ
وأنينُ الناي يبقى

والموتُ في الأرض لابن الأرض خاتمةُ
فمن يُعانق في أحلامه سحراً
ومن يُلازم تريباً حال يقظته
فالموتُ كالبحر من خفت عناصره

ليس في الغابات موتُ
فإذا نيسان ولى
إنَّ هول الموت وهمُ
فالذي عاش ربيعاً
أعطني النايَ وغنِّ
وأنينُ الناي يبقى

وانس ما قلت وقلنا
فأفدني ما فعلنا
منزلاً دون القصور
وتسلقت الصخور
وتنشفت بنور
في كؤوس من أثير
بين جفنا العنب
كثريات الذهب
ولمن جاع الطعام
ولمن شاء المدام
وتلحفت الفضا
ناسياً ما قد مضى
موجه في مسمعك
خافق في مضجعك
وانس داءً ودواء
كتبت لكن بماء
في اجتماع وزحام
واحتجاج وخصام
وخيوط العنكبوت
فهو في بطء يموت

في قبضتي لغدت في الغاب تنتثر
فكلما رمت غاباً قام يعتذر
والناس في عجزهم عن قصدهم قصرُوا

أعطني الناي وغن
إنما النطق هباءً
هل تخذت الغاب مثلي
فتتبع السواقي
هل تحممت بعطر
وشربت الفجر خمراً
هل جلست العصر مثلي
والعناقيد تدلت
فهي للصادي عيون
وهي شهده وهي عطر
هل فرشت العشب ليلاً
زاهداً في ما سيأتي
وسكوت الليل بحر
وبصدر الليل قلب
أعطني الناي وغن
إنما الناس سطور
ليت شعري أي نفع
وجدال وضجيج
كلها إنفاق خلد
فالذي يحيا بعجز

العيش في الغاب والأيام لو نُظمت
لكن هو الدهر في نفسي له أرب
وللتقادير سبل لا تغيرها

جبران خليل جبران:

ولد ببلدة (بشري) اللبنانية عام 1883. تعلّم مبادئ القراءة والكتابة على يد الطبيب الشاعر سليم الضاهر مما أتاح له الاطلاع على علوم التاريخ والعلوم والآداب. هاجر مع عائلته عام 1895 إلى أمريكا، ثم عاد إلى بيروت في العام 1898، ودرس بمدرسة الحكمة. وفي العام 1902 هاجر مرة أخرى ليوطن بأمريكا.

كان جبران رائداً لأدباء المهجر في التعبير والفكر بأدبه الجذاب، الذي وصف فيه الحياة من حوله والطبيعة والكون، فكان ينبوعاً صافياً استقى منه زملاؤه في الأمريكتين، وامتد أثره إلى المشرق العربي. أسس "الرابطة القلمية"، وجعلها منبراً للأدب العربي في المهجر، وظلّ عضواً البارز حتى وفاته، وكان من أعضاء الرابطة القلمية البارزين، ميخائيل نعيمة، إيليا أبو ماضي، نسيب عريضة، وعبد المسيح حداد.

آثاره: في الشعر ديوان (المواكب)، وفي النثر، الأجنحة المنكسرة، النبي، الأرواح المتشردة، دمعة وابتسامة، رمل وزبد، عرائس المروج، رسائل جبران، ومن كتبه التي ألفها بالإنجليزية: المجنون، التائه، يسوع ابن الإنسان.

توفي جبران خليل جبران في نيويورك في 10 أبريل/ نيسان 1931 وهو في الـ 48 من عمره بمرض السل. وكانت أمنيته أن يُدفن في لبنان، وقد تحقق له ذلك، فقد دُفن جبران في صومعته القديمة في لبنان، فيما عُرف لاحقاً باسم متحف جبران.

المراجع:

-
- قصيدة المواكب – المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران – دار ميوزيك للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع - 2001
 - كتاب النصوص والمطالعة للصف الثاني الثانوي (التوجيهي) الأردني – منهاج عام 1974-1996